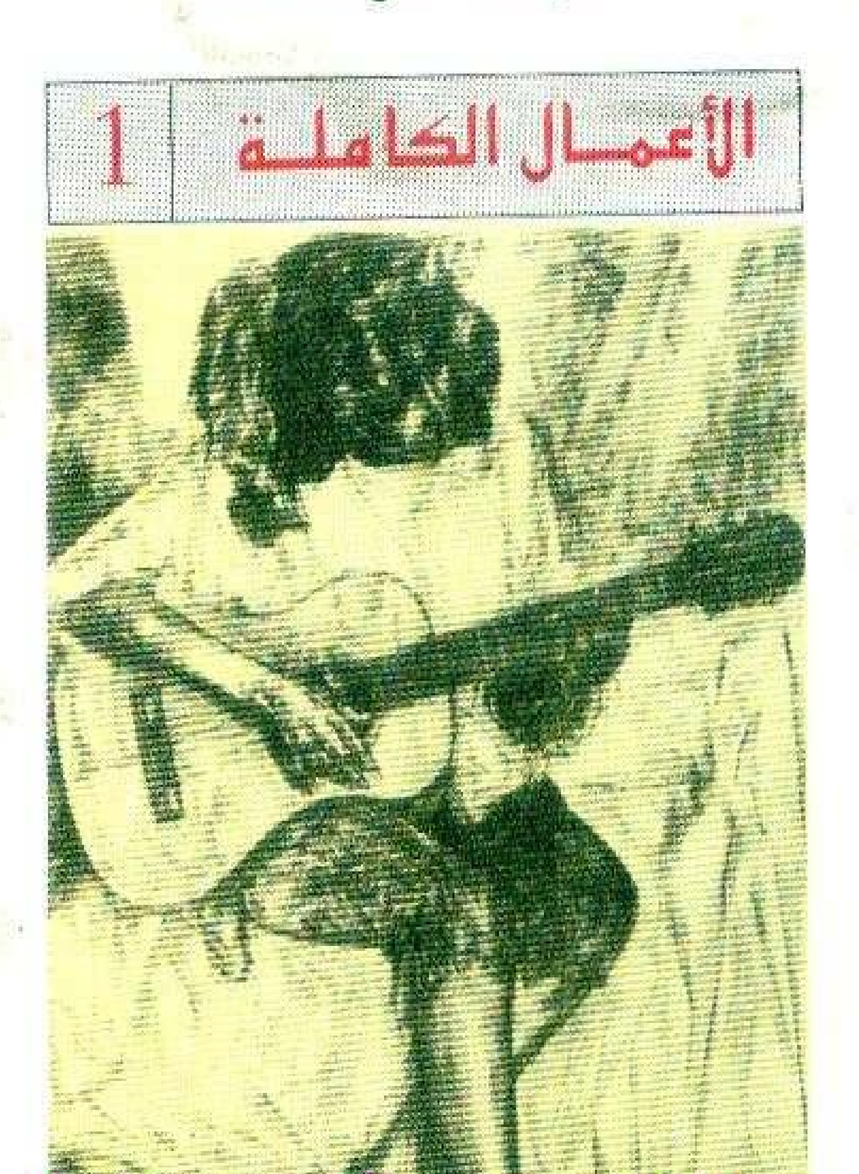
فرانتس كافكا

الـــدودة الهائـــلة

الأعمـــال الكاملـــة | 1



29

ترجمة : الدسوقي فهمي



الهيئة العامة لقصور الثقافة



آفاق الترجمة

آفاق الترجمة
يونيو ١٩٩٧
٢٩



الهيئة العامة
لقصور الثقافة

الدودة الهائلة

(كافكا، الأعمال الكاملة ـ 1)

قصص : فرانتس كافكا

ترجمة : الدسوقى فهمى

لوحة الغلاف
للفنان الدسوقى فهمى

تصميم الغلاف
عمر جهان

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالى :
١٦ ش أمين سامى - القصر العينى - القاهرة. رقم بريدى ١١٥٦١

هذه ترجمة كاملة لكتاب

Metamorphosis

and other stories,

Franz Kafka,

Penguin Modern Classics, 1958

الطبعة الأولى

تقديم

سبق أن نشرت ترجمتى لقصة «التحول» فى جريدة المساء على ثمانى حلقات يومية مصحوبة برسومى لها بدءاً من ٦٨/٩/٤ وحتى ١٩٦٨/٩/٢٠، بإشراف «عبد الفتاح الجمل» وقتها تحت عنوان «المسخ»، وأرى الآن أن تنشر ضمن مجموعتها الكاملة التى نشرت هذه القصة فى بدايتها، وتحت العنوان الذى اخترته لها وهو «التحول».

أيضاً توجد ضمن قصص هذه المجموعة قصة «الدودة الهائلة» وقد نشرت فى المساء على يومين متتاليين (١٧ و١٨ ـ ٨ ـ ٦٨) وعنوان القصة ربما كان ينبغى له أن يكون كما يشير بذلك العنوان الأصلى (حيوان الخُلْد هائل الحجم)، لكن تم تكثيف العنوان على كلمتين لم تتجاوزا المعنى، هما (الدودة الهائلة)، «فالخلد كائن فى حجم الدودة تقريباً؛ وهو فى القصة يمثل «الشىء» أو الموضوع الذى تتمثل أو تتجسد فيه الآمال الدفينة بالغة التهويل، تلك الآمال التى يعلقها الإنسان على «ما يعتقده من عقائد مقدسة»، ولا يتبيَّن لا «العلماء» ولا الجمهور، الأهمية الكاملة المتمثلة فى ذلك التهويل، أو تلك الضخامة الهائلة التى تتفجر متجاوزة نطاق «الواقع» المعقول القابل للتجربة أو للمعايشة.

إن من يؤمن بعقيدة ما، إيماناً عميقاً، بلا حدود؛ يمكنه وحده أن يفى هذا (الإيمان) - (الموضوع) حقه. وقد يتدخل (رجال الأعمال)، على أساس من موقف كوميدى (هزلى) اتخذه عدد كبير من الناس المهتمين «بالموضوع» بدافع من (عقيدتهم).

إن رجل الأعمال ليس مهتما (فى القصة) بحيوان (الخلد) هائل الحجم، لكن اهتمامه ينصب فقط على (المدرس).

وبدلاً من الاهتمام بلا حد، ذلك الذى يشغل بال المدرس، يحل محله (عند رجل الأعمال) اهتمام مختلف كل الاختلاف، هو (الشفقة).

هذه هى وجهة النظر العامة التى يتطلع من خلالها الإنسان الحديث نحو الماضى التاريخى الذى خلفته العقيدة وراءها. فالحقيقة إنما تثير اهتمامه فقط من أجل ذلك الإنسان (المدرس).

ويبدو العالم الذى يتكشف للقارىء فى تلك القصة (التى لم تكتمل كتابتها) بعنوان (أبحاث كلب) عالماً بالياً - متكرراً على نحو ما، والمعنى المباشر لهذه القصة (الأمثولة) هو العالم الذى يتعلق بوجود (الكلاب) كتشخيص - بين السطور -، يجد احتقاراً للذات، ويعكس إحساساً بالخزى من الوجود (البشرى) وطبيعة هذا الوجود البشرى، التى لم تبلغ بعد مرتبة الإنسانية. وانسياقاً مع ذلك، تبدو الكلاب الحقيقية لكافكا، بعاداتها العتيقة التى تتشبث بها، وتلتصق بها فى شغف زائد، وقد تضافرت مع تلك العادات العتيدة، خيالات وأوهام غريبة، كأنما تجسد للقارىء صورة هنيئة، ربما تنعكس على مرآتها أشكال أخرى للوجود البشرى، تختلف عن صورته الحالية النكدة.

إن الجو الذى تتحرك الكلاب فى إطاره هو جو تصوره (القصة) على أنه عالم يخْلُو من الفرح، عالم تحكمه الغرائز، وتتسلط عليه العادة «الروتينية»، وهو جو قد يثير مقارنة ما مع عالم التكرار اليومى، وهموم المعيشة التى يعيشها كبير الكتبة (ك.)، أو عالم أهالى القرية، فى أعمال كافكا الأخرى.

كما أن ثمة خاصية تتمثل فى قصص لكافكا اتخذ فيها السرد صيغة الجمع (نحن)، بدلاً من السرد من زاوية رؤية المفرد المتكلم (أنا).

فهذه الـ (نحن) تظهر بتأثير متماثل أو متشابه فى القصة (غير الكاملة أيضاً) (سور الصين العظيم) أو فى طبعة أخرى (عند بناء سور الصين العظيم). وهذه الـ (نحن) التى تقدم السرد، هى صيغة صريحة حميمية مفتوحة، تماثل الـ (نحن)، المستعملة فى الخطاب أو السرد داخل نطاق الأسرة الواحدة، وكما فى قصة (المغنية چوزفين) التى يستخدم فيها كافكا نفس الصيغة فى السرد (نحن)، يشعر القارئ بها وقد اتخذت نبرة أليفة محسوبة مبهجة ومؤثرة.

فقد أحس «الراوى» فى قصة (سور الصين العظيم) بحاجته إلى الحماية التى تكمن فى هذه الكلمة، فى غمار التوحد المنعزل فى صيغة الراوى، والسرد بضمير المتكلم المفرد.

وقد كتب (كافكا) قصة (الجحر) فى السنة الأخيرة من حياته، وكان قد أتم كتابتها، لكن ما تبقى من صفحاتها لا يكاد يكشف عن نهايتها للقارئ. والراوى (أنا) لهذا الجزء المتبقى من القصة؛ هو حيوان منعزل، وحيد، عصبى المزاج، أسلوبه فى الحياة، والطابع النفسى

لشخصيته يذكر القارىء على الفور «بالحفّار» أو ما يسمى بـ (الغرير) وهو حيوان ثديي يحفر لنفسه فى باطن الأرض أوكاراً وممرات. فهو فى القصة يعيش فى داخل جحر يتألف من ممرات ممتدة، ومخازن وحفرات للنوم ونقاط للدفاع، كان قد حفرها كلها، عندما كان صغيراً، بعد أن قضى فترة تجوال بائسة. وفى إحدى المناسبات يسمع هذا الحيوان ضوضاء تتكرر؛ صادرة لابد عن عدو ما، ويتبدى له حينذاك عقم كل إجراءات الدفاع التى كان قد أعدّها ضد هذا العدو المجهول، ثم... تنتهى فجأة هذه القصة غير المكتملة بوصف لهذا الموقف اليائس. أما القصة فى نسختها الكاملة، فكانت قد واصلت وصف المعركة التى دارت وانتهت بهزيمة العدو.

و(الجحر) هو رمز للأمان عندما يتحقق فى الدنيا. «فالجحر» ليس مجرد (فجوة) يمكن اللجوء إليها؛ بل هو التعبير عن طبيعته الخاصة (طبيعة الجحر) التى لا يمكن فقدانها.

يقول (الحيوان) فى القصة : «عندما أكمن فى «الحصن»... تكون كل فكرة عن مجرد السلامة هى أبعد شيء عن ذهنى، ذلك لأننى أعلم أنه هنا فى هذا المكان يتواجد حصنى... حصنى الذى لا يمكن قط أن ينتمى إلى أى كائن آخر، والذى يكون فى جوهره هو حصنى أنا، وأنه بداخله يمكننى فى هدوء أن أتقبل تلك الضربة المحتومة التى يوجهها لى عدوى فى ساعة النهاية، ذلك أنّ دمى سوف يراق هنا فوق أرضى أنا؛ وأنه لهذا لن يضيع».

وبهذا يصبح الصراع فى الدنيا جحيماً متحرك الزوايا، تتبادل فيه الحقائق أماكنها وأوضاعها، وتلتبس فى كثافة حالكة مراوغة، متسلحة

بكلمات ملتبسة متشابهة،... لهذا يصبح الصراع صراعاً صلباً جهنميا له منطق، و«حوار» الخنجر ذى الحدَّين.

وإن كان الراوى فى قصة كافكا (عرب وبنات آوى) يصف جشع (بنات آوى) فى اشمئزاز، ويرى أن العين لا ترتاح فى نظرتها إلى واقع الدنيا ويرى أحد نقاد «كافكا» وهو (هربرت تاوبر) أن التهكم والسخرية الرافضة هى ما يسيطر على قصة (عرب وبنات آوى)، وليست نغمة المرح الحقة.

أما قصة (التحول) فهى تقدم للقارىء حالة من حالات (الفشل) تؤدى إلى (الموت)، وهى قصة تجسد أزمة (وجود) وتشير فى وضوح إلى (انقسام يقع نتيجة لتراكمات فيفصل بين الوعى واللاوَعْى) كما يقول عنها الناقد (بينو ڤون فيزه).

ويتمثل ذلك الانقسام فى بقاء (الذات) الحقيقية (المنسحبة فى عجز من المواجهة) فى البيت على هيئة حشرة هائلة الحجم تسترخى فى الفراش. بينما الجسد الذى يرتدى ملابس تلك «الذات» أى حرفياً الواجهة الخارجية لتلك «الذات»، تترنّح خارجة إلى اضطراب الدنيا الخارجية، وتقوم بالعمل (كبائع متجول).

ومن خلال «التحوُّل» ومبدؤه الأساسى هو الاغتراب عن الذات يكون هذا (الانقسام) هو المبدأ الذى يقوم عليه بناء القصة.

ويقوم مبدأ (الانقسام) كذلك، نتيجة للاغتراب أساساً فى قصص أخرى لكافكا تتفق مع قصة (التحوُّل) فى اتخاذها لموضوع (العقاب) أرضية لها، وهى قصة (فى مستعمرة العقاب) وقصة (الحكم).

أما (سور الصين العظيم) ففيها يعبّر السور عن إرادة لإقامة مملكة الرّب، أو إرادة تتشوق نحو الاكتمال الدنيوى، إلا أن هذا الاكتمال لا يتاح له أن يتحقق بصورة مباشرة، وإنما يتحقق فقط فى صورة (أبنية أو إنشاءات جزئية). فهذه الإنشاءات الجزئية هى (الاكتمالات) المنعزلة، الاكتمالات الخاصة، والتحققات النوعية الجزئية. وأنه ليس للإنسان سوى أن يحقق فقط أهدافاً فردية (شخصية / خاصة ومحدودة.

وينشأ هذا أصلاً عن طبيعة الإنسان نفسه من ناحية؛ ذلك أن الإنسان لا يحتمل أى عبء يتجه وجهة لا نهائية، ولا يسعه أى جهد مطلق لا تلوح له أية إمكانية تجسد مرئية.

نشرت قصة (أبحاث كلب) فى «المساء» على حلقات خمس من ١٨/٤/٦٩ إلى ٢٧/٤/٦٩ ـ ونشرت (سور الصين العظيم) فى (جاليرى ٦٨) . و(الجحر) على سبع حلقات فى «المساء» من ٧/٢/٦٩ إلى ١٤/٢/٦٩ و(التحول) على ثمانى حلقات من ٤/٩/٦٨ إلى ٢٠/٩/١٩٦٨، مصحوبة كلها برسومى لها.

الدسوقى فهمى

التحول

الفصل الأول

استيقظ «جريجور سامسا» ذات صباح بعد أحلام مزعجة، فوجد نفسه قد تحول فى فراشه إلى حشرة هائلة الحجم. كان مستلقياً على ظهره الجامد الذى كان مقسما إلى أجزاء صلبة تشبه الدروع وعندما رفع رأسه قليلاً أمكنه أن يرى الجثة المقببة بنية اللون مقسمة إلى فصوص جامدة مستديرة. لم يكن غطاء الفراش مستقرا فوقها بعد، فى وضعه السابق بل لقد كان على وشك أن ينزلق تماما من فوقها. وكانت سيقانه العديدة التى كانت تبدو رفيعة على نحو بائس، بالنسبة لبقية جسمه تبدو مسننة أمام عينيه بصورة منفرة.

تفكر قائلا فى نفسه ـ ما الذى حدث لى؟.

لم يكن الأمر حلما.

كانت حجرته، حجرة نوم إنسان عادية إلا أنها تبدو فقط صغيرة للغاية على نحو ما، وكائنة وسط الجدران الأربعة المألوفة، وتعلو المنضدة التى كانت تنتشر فوقها أنواع من الملابس المبعثرة

المفكوكة - فقد كان بائعا متجولا - صورة معلقة كان قد قطعها أخيرا من إحدى المجلات المصورة ووضعها فى إطار رقيق مذهب كانت تبدو فيها سيدة ترتدى قبعة من الفراء وقميصا من الفراء، جاكتة فى وضع معتدل ومادة نحو المتفرج غطاء يد من الفراء كان ساعدها كله مختفيا فى داخله.

ثم تحولت عينا جريجور بعد ذلك إلى النافذة وقد دفعته السماء المعتمة - كان فى مقدور المرء أن يسمع وقع قطرات المطر فوق إطار النافذة - إلى الاكتئاب. فماذا لو استغرق فى النوم فترة أخرى قصيرة وتناسى ذلك الهراء كله؟. فكر فى ذلك إلا أنه لم يسعه أن يفعله لأنه كان معتادا أن ينام على جانبه الأيمن ولم يكن فى وسعه أن يستدير وهو فى حالته الراهنة ومهما حاول أن يميل جسمه بالقوة على جانبه الأيمن كان ينقلب ثانية فى كل مرة على ظهره دائما ولقد قام بهذه المحاولة مائة مرة على الأقل مغلقا عينيه، حتى لا يرى سيقانه المرتعشة ثم توقف عن المحاولة فقط حينما بدأ يشعر فى جانبه بألم لعين خفيف لم يسبق له أن عانى مثله من قبل.

تفكر قائلا : يا إلهى، أية مهنة مرهقة تلك التى اخترتها لنفسى متجولا يوما بعد آخر، إنه عمل أشد إثارة للسخط مما لو أدى المرء العمل نفسه فى المتجر، وهناك فوق هذا كله متاعب السفر الدائمة من القلق على اللحاق بالقطار إلى الفراش، والوجبات غير المنتظمة والعلاقات العارضة التى تبقى علاقات جديدة دائما ولا تتمخض أبدا عن أصدقاء متآلفين فليأخذها الشيطان جميعا، أحس باحتكاك بسيط فوق بطنه فسحب نفسه ببطء على ظهره مقتربا من قمة الفراش حتى يتمكن من أن يرفع رأسه

بسهولة أكثر وتفحص الموضع الذى كان يشعر بتآكله فوجده محاطا بعديد من البقع البيضاء الصغيرة التى لم يمكنه أن يدرك طبيعتها وحاول أن يلمسها بإحدى سيقانه إلا أنه أعاد ساقه على الفور ثانية إلى مكانها ذلك أن الملامسة ولدت رعشة باردة سرت فى أوصاله.

انزلق هابطا مرة أخرى إلى وضعه السابق وتفكر قائلا فى نفسه إن هذا الاستيقاظ المبكر يصيب المرء بالغباء التام، إن المرء ليحتاج إلى كفايته من النوم وإن التجار الآخرين ليعيشون كهوانم الحريم فعندما عدت - مثلا - من تجوالى ذات صباح إلى الفندق لكى أدون الطلبات التى حصلت عليها كان هؤلاء الآخرون جالسين فحسب يتناولون إفطارهم فلأحاول فقط أن أجرب السلوك على هذا النحو مع رئيسى وسوف أفصل فى التو واللحظة، وعلى أى حال فربما كان فى هذا كل الخير لى من يدرى ولو لم يكن على أن أحتفظ بذلك العمل من أجل والدى لكنت قد أعلنت رأيى منذ وقت طويل ولكنت قد ذهبت إلى الرئيس وأخبرته صراحة برأيى فيه. وقد كان ذلك كفيلا بأن يطرحه أرضا من على مكتبه وإنها أيضا لطريقة شاذة فى السلوك تلك الجلسة إلى مكتب فى أعلى والتخاطب إلى أسفل مع العاملين وخاصة عندما يكون عليهم أن يقتربوا تماما بسبب ثقل سمع الرئيس. حسنا ما يزال هناك شعاع من الأمل فلقد كنت قد قررت أن أدخر مبلغا كافيا من المال لكى أتمكن من دفع ديون والدى له - ولسوف يستلزم منى خمس سنوات أخرى أو ستا وسوف أمضى فى هذا السبيل دون تراجع. حينئذ سوف يمكننى أن أسترد حريتى كاملة والآن يحسن لى رغم هذا أن أنهض فإن قطارى يتحرك فى الخامسة.

نظر إلى المنبه الذى كانت تتوالى دقاته من فوق الصندوق وحدث نفسه قائلاً - يا أبانا الذى فى السماء! كانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف بينما كان العقربان يتحركان فى هدوء ولقد كانت الساعة قد تجاوزت النصف بعد السادسة بل لقد كانت تقترب من السابعة إلا ربعاً . ألم ينطلق رنين المنبه، كان فى مقدور المرء أن يرى من الفراش أنه كان مضبوطا بدقة على الساعة الرابعة ولقد انطلقت رناته بالطبع نعم لكن. هل من الممكن أن يبقى المرء نائما فى هدوء وسط مثل تلك الضجة التى تصم الآذان حسنا إنه لم ينم فى هدوء إلا أن الأمر كان يبدو كذلك كله فى الظاهر. لكن ما الذى سوف يفعله الآن، إن القطار التالى يمضى فى تمام السابعة ولكى يتمكن من اللحاق بذلك القطار فإن عليه أن ينطلق كالمجنون ولم تكن حتى «عيِّناته» قد حزمت بعد كما أنه هو نفسه لم يكن يشعر على وجه الخصوص بالانتعاش ولا بالنشاط. وحتى لو أنه تمكن من اللحاق بالقطار فليس فى وسعه حينذاك أن يتجنب وقوع عراك بينه وبين الرئيس لأن حمّال المتجر سيكون قد انتظر قطار الساعة الخامسة وسيكون قد سجل عدم حضوره، منذ ذلك الوقت لم يكن الحمّال سوى مخلوق غبى إمعة من أتباع الرئيس. حسنا فلنفرض أن بإمكانه أن يقول إنه كان مريضا إلا أن هذا العذر سوف لا يقبل أكثر من أى عذر آخر سواء، كما أنه سيبدو مثيرا للشك به أنه لم يسبق له أن مرض مرة واحدة طوال الأعوام الخمسة التى قضاها فى الخدمة ومن المؤكد أنه كان على الرئيس نفسه أن يحضر وبرفقته طبيب التأمين الصحى وكان سيعنف والديه لتكاسل ابنهم وسيقطع السبيل أمام مختلف الأعذار بإشارة من يده إلى طبيب

التأمين الذى يرى البشر جميعهم ـ طبعا ـ متمارضين فى تمام العافية فإلى أى حد كان خطؤه سيبدو فى هذه الحالة، كان جريجور يشعر أنه حقا على ما يرام فيما عدا نوع من الخمول الذى كان يبدو زائدا تماما عن المألوف بعد مثل ذلك الاستغراق الطويل فى النوم كما أنه كان جائعا جدا على غير العادة.

وبينما كان هذا كله يدور بغاية السرعة فى رأسه حين كان عاجزا عن أن يقرر مغادرة فراشه وكان المنبه قد أشار لتوه إلى السابعة إلا ربعا. انبعثت دقة واحدة على الباب خلف رأس فراشه وارتفع صوت ما ـ كان صوت أمه ـ قائلا ـ جريجور لقد بلغت الساعة الآن السابعة إلا ربعا ألن تسافر اليوم... ذلك الصوت الرقيق. أصيب جريجور بصدمة عندما استمع إلى صوته وهو يجيبها، كان صوته هو حقا دون شك إلا أنه كان مصحوبا بزقزقة صارخة مخيفة متصلة كانت تذيله كالهمس الذى كان يجعل الكلمات تخرج فى جرسها الواضح فقط للوهلة الأولى لكن أصداءه كانت ترتفع متكسرة حولها لتشوه وقعها حتى أنه لم يكن يسع المرء أن يتثبت من أنه قد سمعها بوضوح. وقد أراد جريجور أن يجيب فى النهاية وأن يشرح كل شىء إلا أنه قصر نفسه لظروفه تلك فقط على أن يقول.. نعم.. نعم أشكرك يا أمي سوف أنهض الآن ويبدو أن الباب الخشبى الذى كان يفصلهما لابد قد تسبب فى ألا يبدو التغيير فى صوته ملحوظا خارجه ذلك أن والدته قد قنعت بذلك الرد ومضت مبتعدة إلا أن تلك الكلمات القصيرة المتبادلة قد تسببت فى إزعاج باقى أفراد الأسرة عندما تبينوا منها أن جريجور كان ما يزال بالمنزل على عكس ما كانوا يتوقعون وكان والده قد شرع

يطرق أحد الأبواب الجانبية بقبضته فى رفق منادياً - جريجور.. جريجور ما الذى حدث لك. ثم راح ينادى ثانية بعد قليل بصوت أكثر ارتفاعا - جريجور.. جريجور.. وأمام الباب الداخلى الآخر كانت أخته تقول فى صوت خفيض باك - جريجور ألست على ما يرام هل تحتاج إلى أى شىء، وأجابهما معا على الفور قائلا - إننى جاهز الآن، باذلا كل جهده فى أن يجعل صوته يبدو عاديا بقدر الإمكان ناطقا الكلمات بكل وضوح وتاركا لحظات من الصمت بين كل كلمة والأخرى وعلى هذا فقد مضى والده عائدا لتناول إفطاره لكن شقيقته همست قائلة - جريجور افتح الباب، افتحه و.. مع ذلك فلم يكن ليفكر فى فتح الباب وشعر بالامتنان لتلك العادة الحكيمة التى اكتسبها من أسفاره وهى تعوده على إغلاق كل الأبواب أثناء الليل حتى فى المنزل.

كان أول ما ينوى أن يفعله هو أن ينهض فى هدوء دون أن يزعجه أحد و.. أن يرتدى ملابسه وأهم من هذا كله أن يتناول إفطاره ثم بعد ذلك يتدبر ما الذى يجب عليه أن يفعله فقد كان منزعجا جدا وهو فى فراشه ولم تكن تأملاته تنتهى إلى نهاية معقولة وتذكر أنه غالبا ما أحس بآلام وأوجاع خفيفة ربما كانت قد سببتها له الأوضاع غير الصحيحة التى كان يتخذها أثناء نومه وكان يتأكد عندما كان ينهض فى كل مرة أنها لم تكن سوى محض خيالات ولقد كان يتطلع فى لهفة إلى رؤية أوهام هذا الصباح وهى تنقشع هى أيضا. وأن يتضح له أن التغيير فى صوته لم يكن سوى نذير بنوبة برد شديدة وهى علة التجار الجوالين العتيدة... لم يكن لديه أدنى شك فى ذلك.

كان طرح الغطاء أمرا سهلا للغاية، لم يكن عليه سوى أن ينكمش قليلاً على نفسه وسوف ينزلق الغطاء تلقائيا إلا أن الحركة التى تلى ذلك هى ما كانت تشق عليه خاصة وأنه كان عريض الجسم بصورة غير عادية، ولسوف يحتاج إلى أذرع وأيد لكى يرفع نفسه إلى أعلى إلا أنه لم يكن له بدلا من ذلك فقط سوى تلك الأرجل العديدة الضئيلة التى لم تتوقف عن الاضطراب فى كل الاتجاهات والتى لم يكن بوسعه أن يتحكم فيها.

وعندما حاول أن يثنى واحدة من تلك السيقان وجدها قد فردت نفسها تماما على الفور و.. عندما نجح فى ثنيها أخيرا كما أراد اضطربت بقية السيقان جميعا فى نفس الوقت اضطرابا أشد عنفا فتذبذبت فى صورة غاية فى الفظاعة.

وحدث جريجور نفسه قائلا : وما فائدة الاستلقاء كسلا فى الفراش إذن وفكر أنه ربما يمكنه أن يغادر الفراش بالجزء الأسفل من جسمه أولا إلا أن الجزء الأسفل من جسمه الذى لم يكن قد رآه ولم يكن حتى قد تمكن من أن يكوّن فكرة واضحة عنه كان من الصعب جدا أن يتحرك كما اتضح من المحاولة، كان يتململ فى بطء شديد، وعندما تملكه الضيق فى النهاية ودفعه إلى أن يجمع كل قواه مندفعا فى تهوز إلى خارج الفراش كان قد أخطأ فى توجيه حركته وانحط فى عنف بجزئه الأسفل فى أسفل الفراش و.. هيأ له الألم الشديد الذى أحسه فى تلك اللحظة أن ذلك الجزء الأسفل من جسمه ربما كان بالتحديد هو أكثر أجزاء جسمه حساسية.

وعلى هذا فقد حاول أن ينهض بالجزء الأعلى من جسمه أولا ورفع رأسه بحذر متجها نحو حافة الفراش وبدا ذلك سهلا إلى حد بعيد، وتبع جذعه حركة رأسه أخيرا فى بطء على الرغم من تلاحق أنفاسه وثقل جسمه... لكنه حتى عندما كان قد أخرج رأسه تماما خارج الفراش كان يحس بالفزع ما يزال يتملكه، الفزع الشديد من الاستمرار فى محاولته ذلك أنه لو ترك جسمه يسقط على هذا النحو فى نهاية الأمر فلن يسلم رأسه من الجراح سوى بمعجزة، ومهما كان الثمن فقد كان عليه ألا يفقد وعيه الآن، والآن على وجه التحديد كان هو الوقت الذى يجب عليه فيه أن يبقى فى الفراش.

لكنه بعد أن استقر ثانية في وضعه السابق متنهدا بعد تكرار المحاولات نفسها وراح يرقب سيقانه الضئيلة وهى تتخبط بعضها ببعض فى عنف أشد قسوة من ذى قبل - لو كان ممكنا أن يحدث ذلك - بينما يرى هو أن ليس ثمة وسيلة للسيطرة على ذلك الاضطراب المحتوم و.. مرة أخرى حدث نفسه قائلا، إنه من المستحيل البقاء فى الفراش وإن الحل الأقرب إلى الصواب هو أن يغامر فى سبيل بصيص من الأمل فى النهوض منه ولم ينس أن يذكر نفسه فى تلك الأثناء أن التفكير الهادىء - على قدر ما يسعه الهدوء - أفضل كثيرا من القرارات اليائسة وركز فى تلك اللحظات بقدر ما وسعه التركيز على النافذة إلا أن منظر ضباب الصباح الذى كان يحجب الجانب الآخر من الشارع الضيق قد بث فيه - لسوء الحظ - قليلا من الراحة والعزاء.

وقال لنفسه عندما رن جرس المنبه مرة أخرى إنها الساعة السابعة الآن.. الساعة السابعة الآن و.. ما يزال هناك مثل ذلك الضباب الكثيف وظل مستلقيا فى هدوء لفترة قصيرة وهو يتنفس تنفسا خفيفا كما لو كان يتوقع أن مجرد رقدته تلك ربما أصلحت كل شىء، و أعادته إلى حالته العادية الحقيقية.

إلا أنه سرعان ما قال لنفسه «يجب علىّ أن أكون خارج هذا الفراش قبل أن تدق الساعة معلنة السابعة والربع دون أن يجانبنى التوفيق فى إنجازه فربما وصل شخص ما بأية حال ـ من المتجر فى ذلك الوقت للسؤال عنى حيث يفتح المتجر أبوابه ـ قبل السابعة و.. بدأ يهز جسده على الفور فى إيقاع منتظم بهدف تطويحه خارج الفراش ولو اصطدم بشىء ما بخروجه من الفراش على هذا النحو ففى وسعه أن يمنع عن رأسه أى أذى برفعه بزاوية حادة عندما يسقط ويبدو أن ظهره كان صلبا بدرجة تكفى لكى يتحمل ألم سقطته فوق السجادة و.. كان أخشى ما يخشاه هو صوت الارتطام المرتفع الذى لن يكون فى مقدوره أن يمنعه والذى، ربما سبب قلقا ـ إن لم نقل رعبا ـ خلف كل الأبواب و.. عليه أن يقوم بتلك المخاطرة على أية حال.

وعندما أصبح بالفعل فى منتصف محاولته لمغادرة الفراش ـ وكانت هذه المحاولة الجديدة للخروج من الفراش تأخذ شكل لعبة أكثر من كونها مجهودا لأنه لم يكن بحاجة فقط سوى إلى أن يهز نفسه بالتطوح هنا وهناك ـ باغتته فكرة المساعدة التى تسهل تلك اللعبة إلى حد بعيد. ولسوف يكون شخصان قويان كافيين للغاية وكان يفكر فى والده وفى الخادمة، و.. لن يكون عليهما سوى أن يفردا أذرعتهما تحت ظهره

المحدودب ويرفعاه من الفراش ومن ثم ينحنيان إلى أسفل بحملهما وعليهما أن يكونا مترفقين بما يكفى لكى يتركا له الفرصة لكى ينقلب تماما إلى الأرض حيث يمكن أن يكون ثمة أمل حينئذ فى أن تجد أقدامه سبيلها إلى العمل بصورة تامة، حسنا هل يجب عليه أن يزعق طالبا النجدة ـ متجاهلا أن كل الأبواب كانت جميعها مغلقة، لم يتمكن من أن يمنع الابتسامة عندما راودته هذه الفكرة على الرغم من بؤسه.

كان قد قطع شوطا بعيدا حتى أنه لم يعد فى مقدوره أن يحفظ توازنه سوى بصعوبة بالغة عندما كان يطوّح نفسه بشدة وكان عليه أن يستجمع قواه ليتخذ قراره الأخير فورا ذلك أن الوقت أوشك أن يبلغ السابعة والربع فى خلال خمس دقائق ـ عندما دق جرس الباب الخارجى، قال لنفسه وقد جمد تماما «ها هو شخص ما قد قدم من المتجر بينما اهتزت سيقانه الدقيقة مضطربة فى سرعة و.. ظل كل شىء هادئا لدقيقة وقال جريجور لنفسه وهو يتعلق بأمل مجنون، إنهم لن يحاولوا أن يفتحوا له الباب لكن الخادمة ذهبت بالطبع كالعادة إلى الباب فى خطواتها المتثاقلة و.. فتحته ولم يكن جريجور فى حاجة سوى أن يسمع جملة «صباح الخير» الأولى التى سيقولها الزائر لكى يتعرف على شخصيته على الفور ـ لقد كان الباشكاتب نفسه، يا له من قدر أن يُقضَى عليك بالعمل فى متجر حيث يثور حولك أشد أنواع الارتياب تزمتا لأقل إهمال! هل المواطنون جميعا وبصفة خاصة مجرد أوغاد لا يوجد بينهم أبدا ولو رجل واحد فقط مخلص فى تفانيه، رجل على الرغم من أنه قد يضيع ساعة أو نحوها من وقت عمل المتجر ذات صباح فإنه

يكاد يفقد صوابه تحت وطأة عذاب الضمير وهو غير قادر رغم ذلك على أن يبارح فراشه وهل يكفى حقا أن يرسل مستخدمه للاستفسار لو كانت هناك ثمة ضرورة للاستفسار بالمرة. هل كان على الباشكاتب نفسه أن يحضر وأن يكشف أمام الأسرة كلها.. أمام أسرة بريئة أن مثل تلك الظروف المريبة من الممكن أن تفحص على يد من لا يقل عنه شخصيا خبرة بهذه الأمور وتحت وطأة الحيرة التى سببتها له هذه التأملات لا بسبب أى دافع آخر من دوافع الإرادة. طوح جريجور نفسه إلى خارج الفراش بكل ما أوتى من قوة ولقد ارتفع صوت صدمة مدوية إلا أنها لم تكن صدمة بالفعل. فلقد خففت السجادة إلى حد ما من شدة الصدمة كما أن ظهره أيضا كان أقل صلابة مما كان يظن وعلى هذا فقد كان ما حدث هو مجرد هبدة حمقاء إلا أنها لا تبعث كثيرا على الارتياح لم يكن فقط قد رفع رأسه بعناية كافية وعلى هذا فقد أصيب و.. قد أداره وحكه على السجادة فى ألم وهياج.

قال الباشكاتب فى الغرفة المجاورة إلى اليسار ـ لقد كان ذلك، شىء ما قد انطرح أرضا بالداخل، و.. حاول جريجور أن يفترض فى نفسه أن شيئا كهذا الذى حدث له اليوم ربما حدث يوما ما للباشكاتب، ولا يسع المرء فى الواقع أن ينكر إمكان أن يحدث ذلك. إلا أن الباشكاتب تقدم خطوتين بثبات، فى الغرفة المجاورة وصر حذاؤه المصنوع من الجلد الجيد كما لو كان ذلك إجابة مقتضبة على ذلك الافتراض. وكانت أخته تهمس إليه من الغرفة التى إلى اليمين لتنهى إليه الموقف، قائلة : جريجور إن الباشكاتب هنا. تمتم جريجور قائلاً لنفسه : أعلم ذلك، إلا أنه لم يجرؤ على أن يرفع صوته إلى حد يكفى لكى تسمعه أخته.

وقال والده أخيرا من الغرفة التى إلى اليسار : ـ جريجور، لقد حضر الباشكاتب، وهو يريد أن يعرف لماذا لم تلحق بالقطار المبكر. إننا لا نعرف ماذا نقول له، وهو بالإضافة إلى هذا يريد أن يتحدث إليك شخصيا فافتح الباب أرجوك إنه سيكون كريما بما يكفى ليغفر لك اضطراب نظام غرفتك».

وكان الباشكاتب يهتف فى أثناء ذلك قائلا فى ود ـ «صباح الخير يا سيد سامسا»!.

وقالت والدته للزائر بينما كان والده ما يزال يحدثه من خلال الباب إنه ليس على ما يرام.. إنه ليس على ما يرام يا سيدى، صدقنى وإلا فأى شىء آخر يمكن أن يعوقه عن اللحاق بالقطار إن الفتى لا يفكر أبدا سوى فى عمله وإن تعوده على عدم الخروج فى الأمسيات ليحزننى للغاية فلقد كان هنا طوال الأيام الثمانية الماضية وقد بقى كل ليلة من الليالى قابعا بالمنزل إنه يجلس فحسب هناك إلى المائدة فى هدوء يقرأ جريدة أو يتطلع فى جدول مواعيد القطارات، إن تسليته الوحيدة هى أعمال النجارة الدقيقة وحفرها وتخريمها فهو قد أنفق ليلتين أو ثلاث ليال فى صنع إطار صغير لصورة ولسوف يدهشك عندما تتفحص جمال صنعه، إنه معلق على أحد حوائط غرفته ولسوف تراه لأول وهلة عندما يفتح جريجور الباب. يجب علىّ أن أعلن سرورى لقدومك يا سيدى. يجب علينا ألا نثقل عليه أبدا بإرغامه على فتح الباب لأنه حرون جدا و.. إننى واثقة من أنه على غير ما يرام وأنه لم يكن فى تقديره أن يتأخر هذا الصباح.

قال جريجور بتباطؤ للغاية «إننى قادم فورا» دون أن يتحرك بوصة واحدة لخوفه من أن يفوته سماع كلمة واحدة من الحديث.

وقال الباشكاتب ـ «لا أظنني بحاجة إلى مزيد من التفسير يا سيدتي وآمل ألا يكون في الأمر ثمة خطورة على أننا يجب أن نقول من ناحية أخرى إننا ـ معشر رجال الأعمال ـ لحسن حظنا أو لسوئه علينا ببساطة في الأغلب أن نتجاهل أية وعكة خفيفة طالما كان أمامنا ما يجب أن نقوم به من الأعمال.

تساءل والد جريجور بصبر نافد وهو يدق ثانية على الباب ـ حسنا، هل يمكن أن يدخل الباشكاتب الآن فقال جريجور ـ «لا» وتبع هذا الرفض صمت أليم ساد الحجرة التي إلى اليسار بينما بدأت أخته تنهنه باكية في الحجرة التي إلى اليمين.

لماذا لم تنضم أخته إلى الآخرين ربما كانت قد غادرت الفراش لتوها ولم ترتد حتى الآن ملابسها بعد حسنا لماذا كانت تبكي لأنه لم ينهض ولأن الرئيس سوف يزيد أنانيته في مطالبة والديه بديونهما القديمة كانت هذه بالتأكيد أشياء لم يكن المرء في حاجة إلى أن يقلق الآن بخصوصها فلا يزال جريجور بالمنزل وهو لا يفكر مطلقاً في ترك الأسرة في هذه اللحظة بالفعل كان ممددا فوق السجادة وأي شخص كان يعلم حقيقة حالته لم يكن ليتوقع منه أن يسمح للباشكاتب بالدخول إلا أن جريجور لم يستطع سوى بصعوبة بالغة أن يصرف نفسه لحظتها عن التفكير في فظاظة مثل ذلك السلوك التي كان من الممكن بحثها تماما فيما بعد بشكل كاف ولقد بدا لجريجور أنه كان من الأقرب للصواب أن يتركوه حينئذ في سلام بدلا من أن يزعجوه بدموعهم وتوسلاتهم إلا أن شكوكهم ومخاوفهم بالطبع كانت ما تزال هي ما يبعثهم جميعا على مثل ذلك الارتباك و.. تبرر سلوكهم.

وأخيرا هتف الباشكاتب قائلا في صوت أكثر ارتفاعا : ما الذي دهاك يا سيد سامسا؟، فها أنت ذا تتحصن داخل حجرتك، مجيبا علينا فقط بنعم، ولا، ومسببا لوالديك كثيرا مما لا يلزمهما من الإزعاج، ومهملا ـ وأنا أذكر هذا فقط في سياق الحديث ـ مهملا واجبات عملك بصورة لا تعقل إنني اتحدث الآن باسم والديك، وباسم رئيسك وأرجوك في جدية تامة أن تقدم تفسيرا سريعا ودقيقا لذلك كله. إنك لتدهشني . إنك لتدهشني! لقد عهدتك شخصا هادئا، يعتمد عليه، ولكنك تبدو الآن فجأة ميالا إلى استعراض نفسك في استهتار لقد لمّح لي الرئيس مبكرا هذا الصباح بتفسير ـ ممكن ـ لغيابك ـ مع الإشارة إلى تلك الدفعات النقدية التي تسلمتها أخيرا كأمانة، لكنني تعهدت فورا بكلمة شرف مؤكدة، إن هذا لا يمكن أن يكون، لكن لم تعد لدى الآن أدنى رغبة، وأنا أراك مهملاً عملك على هذا النحو الذي لا يصدقه عقل، في الدفاع عنك مطلقا. كما أن وضعك في المؤسسة لم يعد على سابق عهده من الثبات. ولقد جئت قاصدا أن أقول لك هذا كله على حدة، لكن بما أنك تضيع وقتي بلا داع إلى هذا الحد، فلست أرى ثمة ما يمنع والديك من سماع هذا بدورهما. فلم يكن عملك مرضيا بالمرة، منذ مضي وقت غير قليل، وليس هذا بالطبع هو موسم الرواج من بين مواسم السنة، إننا نوافقك على هذا، إلا أنه لا يوجد بين مواسم السنة موسم لا يلزمنا فيه القيام بأي عمل على الإطلاق، ويجب ألا يوجد هذا الموسم يا سيد ـ سامسا ـ !!.

صاح جريجور قائلا وقد نسي نفسه في ارتباكه، ونسي كل شيء آخر حوله: لكنني يا سيدي، في سبيلي لكي أفتح الباب في التو

واللحظة. وإن وعكة طفيفة، نوبة من نوبات البرد، هى ما عاقتنى عن النهوض، إننى مازلت مستلقيا فى الفراش. لكننى أشعر الآن بأننى على ما يرام وإننى لأنهض من الفراش الآن، فأرجو أن تسمح لى بدقيقة أخرى أو دقيقتين!، إننى لست على خير ما يرام تماما، كما كنت أعتقد، إلا أننى بخير حقا!. كيف يتسنى لشىء من هذا القبيل أن يطرح المرء أرضا فجأة!. لقد كنت على خير ما يرام فى الليلة الماضية بالذات، ويمكن أن يخبرك والدى بهذا، وإلا فلن يكون ما دهمنى سوى مجرد توجس طفيف. وقد كان من واجبى أن أشير إلى ذلك. فلماذا لم أرسل تقريرا إلى المؤسسة عن ذلك، إلا أن المرء يظن دائما أن أية وعكة قد تمر بسلام، دون أن تضطره إلى البقاء فى المنزل أرجوك يا سيدى، أن تعذر والدى!، إن كل ما تلومنى الآن عليه، لا أساس له، كما أن أحدا لم يشر لى إليه من قبل بكلمة قط. ولعلك لم تطلع بعد على قائمة الطلبات الأخيرة التى سلمتها، وعلى أية حال، فما يزال فى وسعى أن ألحق بقطار الساعة الثامنة فقد تحسنت كثيراً خلال تلك الساعات القلائل التى ارتحت خلالها، فلا تتأخر هنا بسببى يا سيدى، ولسوف أستأنف عملى فى الحال، وأرجو أن تتكرم، فتخبر الرئيس بذلك، وأن تعتذر له نيابة عنى!.

وبينما كان يتتابع هذا كله ويختلط، وجريجور لا يكاد يعى ما الذى يقوله، كان قد بلغ صندوق الملابس فى سهولة تامة، ربما بسبب التمرينات التى كان قد قام بها فى الفراش، وكان يحاول الآن أن يرفع نفسه إلى أعلى مستندا إليه، وكان ينوى بالفعل أن يفتح الباب، وأن يخرج فعلا، ويتحدث إلى الباشكاتب، وقد كان متلهفا أن يعرف ما الذى

سوف يقوله الآخرون، بعد طول إلحاحهم، لحظة أن تقع أعينهم عليه، فإن ارتسم على وجوههم الرعب، فإن المسئولية حينئذ سوف لا تكون مسئوليته هو ويمكنه أن يبقى ساكنا، أما إذا واجهوه فى هدوء، فلن يكن أمامه حينئذ أيضا ثمة ما يكدره ويمكنه بالفعل أن يتوجه إلى المحطة لكى يلحق ـ لو أمكنه أن يسرع فى السير ـ بقطار الساعة الثامنة، ولقد انزلق فى البداية بضع مرات من فوق سطح صندوق الملابس اللامع لكنه تمكن فى النهاية، بانتفاضة أخيرة، من أن يقف مستقيما، ولم يلق بالا حينئذ إلى الآلام التى كان يشعر بها فى النصف الأسفل من جسده مهما اشتد وخزها، ثم ترك جسده ليسقط إلى ظهر أحد المقاعد القريبة، وتشبث بأرجله الدقيقة فى حواف المقعد، وقد مكنه ذلك من السيطرة على نفسه من جديد، وكان قد توقف تماما عن الكلام ذلك أنه كان فى وسعه الآن أن يتسمع إلى ما كان يقوله الباشكاتب.

كان الباشكاتب يتساءل قائلا : هل فهمتم حرفا واحدا مما قال؟ هل أنتم واثقون من أنه لا يحاول خداعنا... وصاحت والدته قائلة وسط دموعها : آه يا عزيزى لعله يعانى مرضا فظيعا، بينما نسبب له نحن مزيدا من الآلام. صاحت تنادى : جريتا، جريتا ـ وأجابتها أخته من الغرفة الأخرى: نعم يا ماما؟. كانتا تتصايحان على بعضهما عبر حجرة جريجور! ـ عليك أن تسرعى هذه اللحظة باستدعاء الطبيب، إن جريجور مريض، اذهبى لاستدعاء الطبيب، اسرعى هل سمعت رنة حديثه؟.

رد الباشكاتب قائلا فى صوت خفيض بدرجة ملحوظة بالقياس إلى جلجلة صوت الأم : إن صوته لم يكن صوتا بشريا!، بينما كان صوت

والده ينطلق مناديا عبر الصالة إلى المطبخ وهو يضرب يديه ببعضهما: أنَّا، أنَّا!، اذهبى حالا للبحث عن حداد كوالين! بينما انطلقت الفتاتان لتوهما مسرعتين عبر الصالة، وانبعث حفيف جونلتيهما - كيف تمكنت أخته من أن ترتدى ملابسها بمثل هذه السرعة؟.

و.. فتحتا بابَ الشقة الخارجى. لم يسمع صوت اغلاق الباب بعد ذلك، كان يبدو واضحا أنهما قد تركتاه مفتوحا كما يفعل المرء فى البيوت التى تدهمها إحدى النكبات الفاجعة.

إلا أن جريجور كان قد أصبح أكثر هدوءا الآن. ويبدو أن الكلمات التى تفوه بها، لم تعد مفهومة على ما يبدو، على الرغم من أنها كانت قد بدت له واضحة بدرجة كافية بل ربما أكثر وضوحا عن ذى قبل، وربما - لأن أذنه كانت قد اعتادت على نبراتها إلا أنهم على أية حال قد أحسوا الآن أن مكروها قد ألم به، و.. أصبحوا على أتم استعداد لمساعدته ولقد أراحه اليقين القاطع الذى بنى على أساسه هذه التقديرات المبدئية لموقفه فلقد أحس بنفسه، وقد انخرط مرة أخرى فى سلك البشر وأفعمت نفسه بالأمل فى أن ينجلى الموقف عن نتائج خطيرة وخارقة على يدى كل من الطبيب وحداد الكوالين، دون أى تمييز محدد - فى الحقيقة - بينهما، ولكى يجعل صوته واضحا بقدر المستطا ع استعدادا للحديث الحاسم الذى كان يترقبه الآن، سعل قليلا، بقدر ما وسعه الهدوء بالطبع، بما أن تلك السعلة، كان من المحتمل أن تبدو مقطوعة الصلة هى أيضا بالسعلة البشرية، ذلك أنه كان ما يزال بوسعه أن يحتاط لكل شىء. وكان قد هبط على الغرفة المجاورة فى تلك الأثناء، صمت تام. ربما كان والداه يجلسان مع الباشكاتب إلى

المائدة، يتهامسون، وربما كانوا قد استندوا جميعا إلى الباب يتسمعون!.

دفع جريجور المقعد ببطء نحو الباب، ثم.. تركه، وتشبث بالباب، ليستند إليه ـ كانت الحوافر التي تنتهى بها سيقانه الدقيقة لزجة على نحو ما ـ ثم استراح لحظة، مستندا إلى الباب بعد جهوده تلك. ثم حاول أن يدير المفتاح فى القفل بفمه. لكن اتضح لتعاسته، أنه لم تكن له بالفعل أية أسنان ـ فبأى شيء آخر يمكنه أن يقبض على المفتاح؟ ولكن فكيه بدلا من ذلك كان غاية فى الصلابة بالتأكيد، و.. قد أمكنه أن يحرك بهما المفتاح، غافلا عن حقيقة أنه كان بلا ريب، قد هشمها فى بعض المواضع، فلقد انبثق من فمه سائل بنى اللون، فلطخ المفتاح وتساقط فوق الأرض.

صاح الباشكاتب قائلا من الناحية الأخرى للباب : انظروا إلى ذلك.. إنه يدير المفتاح! ـ كان ذلك تشجيعا عظيما لجريجور، إلا أنهم تصايحوا جميعا يشجعونه، والده ووالدته هى أيضا : استمر، اضغط على المفتاح! و.. ليقينه من أنهم كانوا جميعا يتعقبون جهوده باهتمام، أطبق فكيه على المفتاح فى تهور بكل ما أوتى من القوة وعندما ازداد دوران المفتاح، تقوس هو أيضا بدوره حول الكالون، مرتكزاً الآن فقط على فمه، دافعا المفتاح، كما ينبغى، أو جاذبا إياه ثانية إلى أسفل بكل ثقل جسده وقد دفعت أولى التكات مرتفعة الصوت التى صدرت عن الكالون، جريجور إلى الإسراع فى مهمته، ومن ثم قال لنفسه أخيرا، وهو يطلق زفرة ارتياح عميقة : وهكذا لن احتاج أخيرا إلى حداد الكوالين ـ ثم .. ضغط رأسه على مقبض الباب لكى ينفتح!.

كان لا يزال مختفيا وراء الباب عندما انفتح بالفعل إلى آخره، لأنه كان قد سحب ضلفته مختفيا خلفها وكان عليه لكى يظهر من فتحة الباب أن يحرك جسده ببطء منحرفا نحو حافة الضلفة التى كانت تحجبه، وكان عليه لكى يفعل ذلك أن يتفادى السقوط مقلوبا على ظهره، فوق عتبة الباب، كان لا يزال منشغلا باتمام تلك الخطة العسيرة، دون أن يجد فسحة من الوقت لمتابعة أى شىء آخر سواها، حتى سمع الباشكاتب، وهو يطلق آهة مرتفعة - بدت كما لو كانت لفحة من الهواء - وكان قد تمكن الآن من أن يراه واقفا كما كان أمام الباب، لاطما فمه المفغور بإحدى كفيه ومتراجعا فى بطء كما لو كانت قد دفعته قوة شديدة غير منظورة، وأطبقت أمه - وكان شعرها الذى لم تكن قد رجلته بعد، على الرغم من وجود الباشكاتب، مايزال أشعث ومنفوشا فى كل اتجاه - كفيها على بعضهما أولا، ثم تطلعت نحو والده، و.. تقدمت نحو جريجور خطوتين، ثم سقطت على الأرض وسط ملابسها التى انتشرت حولها وقد اندفن وجهها تماما بين صدرها، أما والده فقد ضم قبضته بعنف، وقد ارتسم على وجهه تعبير قاس كما لو كان قد انتوى أن يدفع جريجور ثانية إلى داخل غرفته، ثم نظر حوله متفحصا حجرة الجلوس بنظرة زائغة، ثم غطى عينيه بكفيه، و.. انخرط فى البكاء حتى اضطرب صدره العريض.

لم يخرج جريجور عندئذ إلى حجرة الجلوس، وإنما بقى بداخل حجرته مستندا إلى الضلفة الثابتة المغلقة من الباب، وعلى هذا فقد تبدى للرؤية نصف جسده فقط، و.. رأسه مائل إلى جانب حتى يتابع النظر إلى الآخرين وكان الضوء قد انتشر ساطعا فى تلك الاثناء وكان

فى إمكان المرء أن يرى فى مواجهته بوضوح فى الجانب الآخر من الشارع، قِطَعاً من المبنى الرمادى القاتم، الذى لا نهاية لطوله ـ وقد كان لمستشفى ينساب على صفحته فى نعمة حسابية جافة، صف من النوافذ الروتينية المنتظمة، وكان المطر ما يزال يتساقط، إلا أنه كان يتساقط فقط فى قطرات واضحة متناثرة أو بمعنى أصح، فى طرطشات متناثرة، مطردة الإيقاع وكانت أطباق الفطور قد رصت بكثرة فوق المائدة، فقد كان الفطور هو أهم وجبات اليوم عند والد جريجور الذى كان يتلكأ قبل تناوله بساعات عديدة، يقرأ خلالها مختلف الصحف وفى مواجهة جريجور تماما، كانت ثمة صورة فوتوغرافية معلقة على الحائط له فى ملابس الخدمة العسكرية كملازم، .. يده على مقبض السيف، وعلى ملامح وجهه ترتسم ابتسامة ثابتة، تدعو المرء إلى تقدير بذلته ورتبه العسكرية. كان الباب الذى يفضى إلى الصالة مفتوحا وكان فى إمكان المرء أن يرى أن الباب الخارجى كان مفتوحا أيضا ما يزال، تبدو خلفه بسطة السلم وأولى درجات السلم الهابطة إلى أسفل.

قال جريجور، مدركا تماما أنه الوحيد الذى لم يعد يسعه أن يحتفظ بهدوئه، على عكسهم : حسنا، سوف ارتدى ملابسى، ثم أحزم عيناتى، و.. أرحل!!. هل تسمحون لى فقط بالذهاب؟ ـ ها أنت ذا يا سيدى ترى أننى لست حرونا، و.. أننى راغب فى العمل، إن حياة الارتحال، هى حياة شاقة إلا أننى لم أعد قادرا على أن أحيا حياة أخرى سواها، فإلى أين ستذهب أنت يا سيدى؟ إلى الإدارة؟، نعم هل تتكرم بنقل صورة صادقة لهذا كله! إن المرء ليعجز إلى حين، إلا أن لحظات عجزه هذه بالذات هى ما يجب عندها تذكر خدماته السابقة،

وإن ما يحفظه المرء في ذاكرته من هذا فيما بعد، بعد أن تكون قد زايلته شدته يدفعه بلا شك إلى العمل بأقصى ما يسعه الجهد والتركيز! إننى ملتزم بأن أخدم الرئيس فى إخلاص وإنك لتعلم هذا حق العلم وعلىّ بالاضافة إلى هذا أن أعول والدى، وشقيقتى! لقد سقطت فريسة لعديد من المحن المروعة، إلا أننى سأنجو منها فى النهاية فلا تحاول أن تجعل الأمور تبدو بالنسبة لى أشد سوءا مما هى عليه، دافع عنى فى المؤسسة! إننى أعلم أن التجار السفريين، لا يتمتعون بأى عطف هناك، فالناس يعتقدون أنهم يكسبون من الأموال ملء أجولة، ولا يقومون إلا بقضاء أوقات ممتعة فى رحلاتهم، اعتقاد خاطىء ليس ثمة سبب يدعونا الآن بصفة خاصة إلى مراجعته إلا أنك تتمتع يا سيدى برؤية للأمور أكثر وضوحا عما يراه الرئيس نفسه، الذى يدع حكمه، بما أنه مالك المؤسسة يميل بسهولة ضد أحد مستخدميه. وإنك لتعلم حق العلم، أن السفرى الذى لا يتواجد فى الإدارة على مدار السنة بطولها غالبا، عرضة لأن يقع بسهولة فريسة للغيبة، وسوء الطالع، والشكاوى التى لا أساس لها فى حقه، والتى لا يعلم عنها شيئا البتة فى أكثر الأحيان، إلا بعد أن يعود مجهدا من تجواله، ليعانى شخصيا حينئذ فقط نتائج شرورهم التى لا يسعه إذ ذاك أن يتعقبها حتى يقف على دوافعــها الأصليــة. سيدى، يا سيدى، لا تنصرف أرجوك، دون أن تجيبنى بكلمة تـؤكد ثقتـك بأننــى على حـق، و.. لو إلى حــد مــا، على الأقل!.

إلا أن الباشكاتب كان قد استدار متراجعا من فوره عند سماعه أولى كلمات جريجور، محدقا فيه فقط بفم مفغور، فوق كتف مرتعد!،

و.. لم يتوقف ولو للحظة واحدة بينما كان جريجور يتحدث، وإنما انسل مبتعدا نحو الباب، دون أن يرفع عينيه عن جريجور، سوى مرة، لمسافة خطوة فقط، كما لو كان قد تلقى إنذارا سريا بمغادرة الحجرة! وكان قد بلغ الصالة للتو. و.. لكن المباغتة التى خطا بها خطوته الأخيرة إلى خارج حجرة الجلوس كانت تكاد تدفع المرء إلى أن يظن أن كعب قدمه لابد قد لسعه لحظتها حشرة ما! وفى الصالة مد ذراعه الأيمن مرة أخرى أمامه نحو السلم، كما لو كانت ثمة قوة خارقة للطبيعة، تنتظره لتتلقفه هناك.

ولقد أدرك جريجور أنه لم يكن يجب عليهم أن يسمحوا للباشكاتب مهما كانت الظروف، بأن ينصرف فى حالته العقلية المضطربة تلك، لو أن وضعه فى المؤسسة حقا، لم يكن قد أصبح حرجا إلى أقصى حد، إلا أن والديه لم يتفهما ذلك كما ينبغى، فلقد كانا قد اقتنعا نهائيا، على مر السنين أن جريجور، كان قد استقر فى تلك المؤسسة إلى الأبد، كما أنهما كان منشغلين فوق الطاقة علاوة على ذلك بهمومهم الطارئة، لدرجة جانبهم فيها تماما تدبر العواقب، إلا أن هذا التبصر لم يغب عن بال جريجور! فقد كان الواجب عليهم أن يقنعوا الباشكاتب، وأن يهدئوا ثائرته، وأن يغروه على البقاء، حتى يكسبوه أخيرا فى صفهم، ذلك أن مستقبل جريجور كله، ومستقبل أسرته بالتالى كان يتوقف على ذلك، لو أن أخته كانت موجودة فقط إذ ذاك! فلقد كان ذكاؤهاكافيا لإدراك الموقف!. و.. لقد شرعت فى البكاء بينما كان جريجور مستلقيا ما يزال على ظهره فى هدوء، ولا شك أن الباشكاتب بانقياده المعهود للنساء، كان سيتصرف تبعا لإرادتها، و.. لابد أنها كانت ستغلق باب

الشقة، وتتحدث معه فى الردهة بعد أن يزايله كل ما استولى عليه من الرعب، إلا أنها لم تكن هناك! وكان على جريجور أن يتملك زمام الموقف بنفسه! ودون أن يخطر بباله، أنه كان لايزال جاهلا بإمكانياته على الحركة و.. دون أن يتذكر حتى أن كلماته فى أقصى احتمالات تأثيرها ـ وفى أقصى احتمالات وضوحها ـ سوف يلتبس فهمها على الباشكاتب مرة أخرى.

ترك ضلفة الباب، واندفع من خلال فتحته، وبدأ السير متجها نحو الباشكاتب، الذى كان قابضا بكلتا يديه ـ بصورة مضحكة ـ على الدرابزين فوق بسطة السلم، لكنه فجأة تهاوى على الأرض مطلقا صرخة خافتة، ضاعت وسط كل سيقانه العديدة، بينما كان يبحث عن شىء يستند إليه. وهكذا انطرح أرضا عندما كان قد بدأ يمارس لأول مرة فى ذلك الصباح، إحساسا بالراحة الجدية، فلقد كانت الأرض صلبة تحت أقدامه، وكانت حركة سيقانه ـ كما لاحظ فى سعادة ـ طيعة للغاية بل لقد جاهدت لتحمله إلى الأمام فى أى اتجاه شاء، وكان قد أوشك على الاعتقاد بأن الشفاء التام من كل آلامه كان قد بات فى متناول يده! إلا أنه فى نفس اللحظة التى وجد نفسه أثناءها منطرحا على الأرض، ينتفض من غلبة شوقه إلى أن يتحرك غير بعيد عن والدته، بل أمامها مباشرة للحقيقة، هى، التى كان يبدو عليها وكأنها قد تحطمت تماما، قفزت فجأة واقفة على قدميها، ناشرة أمامها ذراعيها وكل أصابعها، صارخة : «النجدة» بحق الإله، «النجدة». ثم أحنت رأسها إلى أسفل، كأنما لتجد جريجور أمامها على ما يرام، إلا أنها على عكس ما كانت تتوقعه، أخذت تتراجع مبتعدة بظهرها، بلا شعور.. إلى الخلف، غائبة

تماما عن أن تتذكر أن المائدة المحملة، كانت تقبع خلفها، لتجد نفسها فجأة مستقرة فوق سطحها، كما لو كان اصطدامها بها قد وقع في غيبة العقل. كما بدت ذاهلة أيضا عن إناء القهوة الكبير الذى انقلب بجوارها، وانصبت القهوة، وفاضت فوق السجادة!.

تمتم جريجور قائلا فى صوت خافت وهو يتطلع إليها : «أماه!! أماه!». وكان الباشكاتب قد اختفى تماما من مخيلته فى تلك اللحظة، ولم يسعه بدلا من ذلك، أن يقاوم اصطكاك فكيه ببعضهما، وهو يرى القهوة باللبن. وقد دفع هذا والدته إلى أن تطلق صرخة أخرى، هاربة من المائدة، لتسقط بين ذراعى والده، الذى أسرع لينتشلها! لكن جريجور لم يكن لديه الآن متسع من الوقت للاهتمام بوالديه، فلقد كان الباشكاتب يهبط السلالم بالفعل، بينما كان يختلس، بذقنه فوق الدرابزين، نظرة أخيرة إلى الخلف وقفز جريجور مندفعا، ليضمن اللحاق به بقدر الإمكان، ويبدو أن الباشكاتب كان قد تنبأ بما انتواه، لأنه قفز هابطا بضع درجات دفعة واحدة، واختفى، بينما كان مايزال يعوى، مطلقا صيحة تأفف أخيرة، تردد صداها فى كل جنبات السلم!.

ولقد بدا أن فكاك الباشكاتب ـ لسوء الحظ ـ قد أحنق جدا والد جريجور الذى كان قد ظل هادئا غاية الهدوء حتى الآن، لأنه بدلا من أن يسرع ليلحق بالرجل نفسه أو على الأقل لا يعوق جريجور فى مطاردته له قد أمسك بيده اليمنى العصا التى كان الباشكاتب قد نسيها فوق المقعد واختطف صحيفة كبيرة بيده اليسرى من فوق المائدة، وراح يدق الأرض بقدميه، ويدفع العصا بالصحيفة على رأسها ليرغم

جريجور على العودة ثانية إلى داخل حجرته!! ولم تفلح توسلات جريجور ولم يفهم فى الحقيقة - رجاء واحدا من رجاءاته، ومهما أحنى رأسه فى تواضع، لم يكن والده يجيبه سوى بأن يدق له الأرض فى ضجة أشد ارتفاعا. وخلف والده فتحت والدته إحدى النوافذ على مصراعيها، رغم برودة الجو، وانحنت تطل منها خارجا، إلى أبعد ما وسعها ذلك ووجهها بين كفيها! وهبت من الشارع لفحة قوية من الهواء. ورفرفت الستائر، وتطايرت الصحف من فوق المائدة، وصفت صفحاتها الشاردة فوق الأرض! ودفعه والده إلى الخلف بلا رحمة، وهو يصفر، ويتصايح كوحش، إلا أن جريجور لم يكن متمرسا قط على السير متراجعا بظهره... كان سيره على هذا النحو بطيئا حقا، فلو أن الفرصة أتيحت له فقط حتى يستدير إذن لأمكنه أن يعود إلى حجرته على الفور، لكنه كان خائفا من إغاظة والده، ببطء مثل تلك المحاولة للدوران على نفسه، وربما صكته عصا والده حينئذ، فى أية لحظة. فى خبطة قاتلة على ظهره، أو فوق رأسه. ورغم ذلك، فلم يكن أمامه أى شىء آخر ليفعله بعد أن أدرك فى رعب أنه فى تحركه إلى الخلف بظهره، لن يمكنه حتى أن يتحكم فى تحديد الاتجاه الذى سوف يتخذه، وعلى هذا، وبينما عيناه القلقتان، ترقبان والده طوال الوقت من فوق كتفه فى حذر، بدأ يتحرك مستديرا بأقصى ما وسعته السرعة، التى بدت - للحقيقة - غاية البطء!! وربما كان والده قد أدرك حسن نواياه، لأنه توقف عن التدخل فيما عدا محاولته من حين لآخر، أن يقدم له بعض العون، على تنفيذ خطته، بطرف العصا، على البعد!! فلو أنه أقلع فقط عن إصدار ذلك الصفير الذى لا يطاق!! فلقد كان يوشك أن يفقد

جريجور صوابه تماما!! كان قد أوشك على إتمام دورانه، عندما أربكه ذلك الصفير، حتى أنه قد انحرف قليلا إلى سابق وضعه، مرة أخرى!! إلا أن رأسه عندما أصبحت تواجه مدخل الباب أخيرا لحسن الحظ، اتضح - بكل بساطة - أن جسده كان عريضا جدا، بحيث لا تسعه فتحة الباب، وكان والده بالطبع فى حالته تلك، أبعد من أن يفكر، فى أى شىء من قبيل أن يفتح له ضلفة الباب الأخرى، حتى يتيح له مسافة كافية للمرور، كانت لديه مجرد الرغبة الملحة فى إعادة جريجور ثانية إلى حجرته بأسرع ما يمكن!! إنه لن يتيح أبدا لجريجور أن يقوم بتلك الترتيبات الطارئة، التى تنتهى بوقوفه، فربما أمكنه أن يمر منزلقا - لو وقف - من خلال فتحة الباب وربما كان قد رفع صوته الآن أكثر من ذى قبل، لكى يحث جريجور على المضى إلى الأمام، كما لو لم تكن هناك أية عقبات تمنعه من المرور، لكن الصوت الصادر من الخلف لم يعد يطن فى سمع جريجور، رغم ذلك، باعتباره صادرا عن أب واحد فقط، - ولم تكن هذه مجرد نكتة - فاندفع - وليحدث ما يحدث - مقتحما فتحة الباب، فارتفع أحد جانبيه، وانزلق فى فتحة الباب بزاوية ما، وغطت الرضوض مؤخرته كلها، ولطخت الباب أبيض اللون لطشات مرعبة، ولم يلبث حتى انزلق أكثر من ذى قبل، وأصبح من المستحيل أن يواصل الحركة مطلقا، بلا معاونة وتعلقت سيقانه مضطربة فى الهواء، على أحد جوانبه. أما السيقان التى فى الجانب الآخر فقد انسحقت فى الأرض بألم لا حد له - عندما دفعه والده دفعة قوية من الخلف كانت خلاصا فعليا له، وارتمى بعيدا فى داخل حجرته، يدمى فى غزارة. وكان الباب قد انصفق خلفه!! ومن ثم هبط الصمت أخيرا بعد ذلك.

الفصل الثانى

لم يفق جريجور، إلا بعد أن هبط المساء من السبات العميق الذى استغرقه، والذى بدا أقرب إلى الإغماء منه إلى النوم، ولاشك أنه كان سيستيقظ من تلقاء نفسه بعد وقت قصير، لأنه أحس بأنه قد استغرق فى النوم، لكن بدا كما لو كان وقع قدم هاربة، وإغلاق الباب المؤدى إلى الصالة فى حذر، هو ما كان قد أيقظه. وكانت المصابيح الكهربائية فى الشارع قد ألقت ضوءا خافتاً هنا وهناك، على السقف، وفوق سطوح قطع الأثاث، لكن أرضية الحجرة، حيث كان قابعا كان يسودها الظلام، وفى بطء بدأ يحرك أمامه فى تخبط قرون استشعاره، التى كان قد أدرك الآن فقط جدواها، ثم اندفع فى طريقه نحو الباب، ليرى ما الذى كان يحدث هناك. كان يحس بجانبه الأيسر وكأنه ندبة واحدة ضيقة، ممتدة فى بشاعة، فلم يكن يسعه بالفعل إذ ذاك سوى أن يتأرجح فى حركته فوق سيقانه التى تتألف من صفين، وكانت ساق صغيرة من سيقانه - بالإضافة إلى هذا - قد تهشمت بقسوة، فى مجرى أحداث ذلك الصباح - ولم يكن يقل عن معجزة، أنه لم تتحطم سوى واحدة فقط من سيقانه وتجرجرت خلفه بلا نفع.

وكان قد بلغ الباب قبل أن يكتشف ما الذى كان قد جره حقا نحوه. رائحة الطعام، ذلك أنه كان قد استقر بالقرب من الباب وعاء قد امتلأ باللبن الحليب، كان يطفو فوق سطحه فتات من الخبز الأبيض. كاد أن يضحك من فرط السعادة فلقد كان قد أمسى الآن أشد جوعاً مما كان عليه فى الصباح، ودب رأسه حتى ما فوق العينين فورا فى قلب وعاء اللبن. لكنه سحبها ثانية فى خيبة أمل، ليس فقط لأنه لم يكن يسعه أن يطعم بسبب الألم الذى كان يرهقه فى الجانب الأيسر ـ فلم يكن يمكنه أن يتناول طعامه سوى بخفقان أجزاء جسده جميعا متضامنة فى وقت معا ـ بل لأنه لم يستسغ اللبن أيضا، على الرغم من أنه كان شرابه المفضل، وإن هذا كان هو السبب بلا شك فى أن أخته قد وضعته له هناك، وقد استدار مبتعدا بالفعل عن الوعاء فى اشمئزاز وزحف راجعا إلى وسط الحجرة!!.

ولقد استطاع أن يرى من خلال شرخ فى الباب، أن المدفأة كانت مشتعلة فى حجرة الجلوس، لكن.. بينما كان والده معتادا فى مثل هذا الوقت على قراءة جريدة المساء لوالدته ولشقيقته أيضا فى بعض الأحيان، بصوت مرتفع، فإنه لم يكن يسمع ثمة أى صوت هناك الآن! حسنا.. ربما كان والده قد أقلع أخيرا عن عادته تلك، على القراءة بأعلى صوته، تلك العادة التى تشير إليها شقيقته فى أغلب أحاديثها وخطاباتها، إلا أن ذلك الصمت كان قد هبط على كل مكان، رغم أن الشقة لم تكن بالتأكيد خالية من سكانها. قال جريجور لنفسه : «ما أروع الحياة الهادئة التى تحياها أسرتنا»، أحس، بينما كان يقبع هناك بلا حراك محدقا فى الظلام، بالزهو الشديد لحقيقة أنه قد تمكن

من أن يحقق لوالديه ولشقيقته الحياة في مثل هذه الشقة الفاخرة! لكن ماذا لو كان على كل تلك السكينة، والراحة، والرضى، أن تؤول جميعها الآن إلى الرعب؟ زحف جريجور قاطعا الحجرة ذهابا وجيئة لاجئا إلى الحركة، كوسيلة تصرفه عن الاستغراق في مثل تلك الأفكار.

ولقد حدث مرة خلال تلك الأمسية الطويلة، أن انفتح أحد الأبواب التي تتوسط الشقة، لحظة قصيرة، ثم أغلق ثانية بسرعة، ثم حدث ذلك للباب المقابل، فيما بعد، أيضا ويبدو أن أحدهم كان قد رغب في الدخول، ومن ثم رأى أن من الأفضل ألا يفعل. فقبع جريجور فورا أمام الباب الذي يفتح على حجرة الجلوس وقد انتوى أن يغري أي زائر متردد على الدخول، أو أن يكتشف على الأقل من عساه أن يكون، إلا أن الباب لم يفتح قط ثانية، وضاع انتظاره عبثا!! كانوا يريدون جميعا أن يدخلوا إليه في ذلك الصباح الباكر، عندما كانت الأبواب مغلقة، والآن بعد أن فتح لهم أحد الأبواب بنفسه، وكان الآخر قد ظل مفتوحا على ما يبدو طوال النهار لم يدخل أي منهم، وحتى المفاتيح كانت في ثقوب الأبواب من الخارج.

لم تنطفىء المدفأة في حجرة الجلوس إلا في وقت متأخر من الليل، وفي مقدور جريجور بسهولة أن يؤكد أن والديه وشقيقته، قد ظلوا جميعا متيقظين حتى ذلك الحين، لأنه كان قد تمكن من أن يتسمع في وضوح ثلاثتهم، وهم يسترقون الخطى، مبتعدين على أطراف أصابعهم. لم يكن يبدو أن أحدا منهم سيزوره قبل طلوع النهار، كان ذلك أكيدا، وعلى هذا فقد كان لديه متسع من الوقت ليتدبر فيه وحده كيف يرتب حياته

من جديد، إلا أن الغرفة الشاهقة الخاوية، التى كان يتعين عليه أن يستلقى متمددا فوق أرضيتها كانت قد ملأته بشعور لم يتمكن من تعليله، بما أنها كانت هى نفس حجرته التى قضى فيها سنواته الخمس الماضية.. وبحركة نصف واعية، لم تفتقر إلى ظل من الشعور بالحرج، اندفع غاطسا تحت الكنبة، حيث أحس بالراحة من فوره، على الرغم من أن ظهره كان مضغوطا على نحو ما، وأنه لم يكن يمكنه أن يرفع رأسه إلى أعلى، وكان ما أسف عليه فقط، هو أن جسده كان أعرض من أن يختفى بكامله، تماما، تحت الكنبة!.

وبقى تحت الكنبة طوال الليل محاولا قطع الوقت أحيانا بالنعاس الخفيف، الذى كان جوعه، يوقظه منه متوفزا، وأحيانا يقطعه مهموما مخططا بعض الآمال المبهمة، التى كانت تنتهى كلها إلى نفس النتائج، التى تتلخص فى أن عليه أن يتمدد الآن أرضا، وبمعالجة الصبر، وغاية التساهل، يمكنه أن يساعد الأسرة على تحمل الصعاب التى سيسببها لهم بحالته الراهنة.

وفى الصباح المبكر جدا، بينما كان ظلام الليل ما يزال سائدا تماما سنحت لجريجور الفرصة لكى يختبر سلامة حلوله الجديدة، فلقد فتحت شقيقته الباب قادمة من الردهة وحملقت فى الداخل، مرتدية ثيابها كاملة تقريبا، لم تتمكن من رؤيته لأول وهلة، إلا أنها عندما رأته تحت الكنبة ـ حسنا ـ لقد كان مقدرا له أن يتواجد فى مكان ما من الحجرة فلم يكن فى مقدوره أن يطير بعيدا، هل كان يسعه أن يفعل..؟ فزعت غاية الفزع، حتى أنها صفقت الباب، فانغلق ثانية، لما لم تتمكن من السيطرة على أعصابها، إلا أنها فتحت الباب مرة أخرى . على

الفور، كما لو كانت قد ندمت على تصرفها ودخلت على أطراف أصابعها، كما لو كانت تعود مريضا، أو شخصا غريبا.. فدفع جريجور رأسه إلى الأمام، وراح يتطلع إليها! هل ستلاحظ أنه قد ترك اللبن، دون أن يمسه، وأن ذلك لم يكن يعنى أنه ليس جائعا؟ وهل ستحضر بعض أنواع الطعام الأخرى التى يستسيغها؟ إنها إن لم تفعل ذلك من نفسها، فلسوف يتضوّر جوعا دون أن يلفت نظرها إلى حقيقة الأمر على الرغم من أنه قد أحس بدافع وحشى لأن يندفع خارجا من تحت الكنبة، وأن يرتمى على قدميها، يستعطفها أن تأتى له بشىء يأكله. إلا أن شقيقته، لاحظت من فورها فى دهشة، أن الوعاء كان ما يزال ممتلئا فيما عدا كمية قليلة من اللبن، كانت قد تناثرت كلها حوله، فرفعت الوعاء على الفور، لا بكفيها العاريتين، فى الحقيقة، بل بقطعة من القماش، وحملته إلى الخارج.. وتملك جريجور فضول وحشى، لمعرفة ما الذى سوف تحضره بدلا من ذلك، واستغرقته التخمينات، إلا أن ما فعلته حقيقة ـ لطيبة قلبها ـ بعد ذلك، لم يكن جريجور يستطيع أن يصل إليه قط بتخميناته.

فحتى تكتشف ما الذى يفضله كانت قد أحضرت له عينات تقريبا من كل ألوان الطعام مفروشة كلها فوق إحدى الجرائد القديمة. كانت هناك خضروات بائتة نصف متعفنة وعظام بقيت من حساء الأمس، مغطاه بدهن أبيض كان قد تجمد وبعض الزبيب واللوز وقطعة من الجبن بإمكان جريجور أن يؤكد أنها كانت قد فسدت منذ يومين وقطعة مستديرة من الخبز الجاف وكسرة خبز مدهونة بالزبد وكسرة مملحة، ومدهونة أيضا بالزبد و.. بجوار هذا كله وضعت ثانية نفس الوعاء، الذى

كانت قد صبت فيه بعض الماء والذى كان قد قصر خصيصا فيما يبدو على استعماله الخاص وفى لباقة زائدة، انسحبت مسرعة، مدركة أن جريجور لن يأكل فى وجودها بل لقد أدارت المفتاح فى كالون الباب حتى يدرك أن فى إمكانه أن يأخذ راحته بقدر ما يشاء وأتبع ذلك صفير سيقان جريجور عندما اتجه نحو الطعام ولابد أن جراحه كانت قد التأمت تماما علاوة على ذلك لأنه لم يعد يشعر بالعجز وهذا ما حيره وجعله يتذكر الآن كيف أنه كان قد جرح أحد أصابعه بسكين بسيطا منذ أكثر من شهر مضى و.. أنه ظل يعانى من ألم الجرح حتى يوم أمس الأول و.. فكر متسائلا «هل أنا الآن أقل حساسية» وراح فى شراهة يمتص الجبن الذى اجتذبه على الفور، أكثر من باقى المأكولات كلها، وبسرعة التهم ودموع الرضا تترقرق فى مآقيه كل الجبن قطعة بعد أخرى والتهم الخضراوات والدهون، لكن الخبز الطازج لم يجذبه بل إنه حتى لم يطق رائحته ثم سحب بالفعل الأشياء التى كان يستطيع أن يأكلها وانتحى بها جانبا. ولقد أجهز من فوره على وجبته وكان مستلقيا فى تكاسل فى نفس مكانه عندما أدارت شقيقته المفتاح ببطء كإشارة له لكى ينسحب، فنهض إذ ذاك على التو رغم أنه كان قد أوشك على أن يستغرق فى النوم وأسرع فاندس مرة أخرى تحت الكنبة.. لكن البقاء تحتها كلفه جهدا ملحوظا من الضغط على نفسه لكى يبقى على حالته ولو للفترة القصيرة التى يستغرقها وجود أخته بداخل حجرته فقط حيث كانت الوجبة الضخمة قد زادت من ضخامة حجمه إلى حد ما، و.. لأنه كان متشنجا حتى أنه لم يكن قادرا على التنفس سوى بصعوبة. ولقد دهمته نوبات خفيفة من ضيق التنفس وكانت عيناه قد

جحظتا قليلا إلى الخارج بينما كان يرقب شقيقته المطمئنة وهى تجمع بمكنسة ليس فقط بقايا ما أكله بل حتى الأطعمة التى لم يقربها كما لو كانت هذه الأطعمة قد أصبحت غير ذات نفع لأى كائن آخر و.. جرفتها بسرعة فى دلو، كانت قد غطته بغطاء من الخشب وحملته إلى الخارج وما كادت تدير ظهرها حتى أخرج جريجور رأسه من تحت الكنبة و.. تمدد وجذب جسده خارجا.

وعلى هذا النحو كان يطعم جريجور.. مرة فى الصباح الباكر حينما يكون والداه والخادمة مازالوا مستغرقين جميعا فى نومهم و.. مرة أخرى بعد أن يتناولوا جميعا وجبة الغذاء حيث يغفو والداه بعدئذ إغفاءة قصيرة و.. يمكن إرسال الخادمة إلى الخارج فى مهمة أو أخرى بتدبير شقيقته وليس هذا بالطبع لأنهم كانوا يريدونه أن يموت جوعا بل ربما لأنه لم يكن فى وسعهم أن يعلموا عن نظام تغذيته أكثر مما تنتهى إليه أحاديثهم وربما أيضا لأن شقيقته قد شاءت أن تجنبهم بقدر الإمكان مشقة مثل تلك الهموم الصغيرة لما كانوا قد ناءوا بالفعل تحت عبء ماتزل بهم.

بأى عذر أمكنهم أن يتخلصوا من الطبيب وحداد الكوالين فى ذلك الصباح الأول، هذا ما لم يتوصل جريجور إلى اكتشافه لأنه منذ ذلك الحين لم تصدم أيا منهم حقيقة أن الآخرين لا يفهمون ما يقوله حتى شقيقته لم تصدمها هذه الحقيقة أنه يفهم ما يقولونه و.. على هذا فقد كان عليه أن يقنع كلما دخلت شقيقته إلى حجرته بسماعها وهى تطلق زفرة من حين لآخر ودعاء عارضا للقديسين وفيما بعد عندما كانت قد اعتادت ذلك الوضع إلى حد ما ـ لم يمكنها بالطبع أن تتعود تماما عليه

- كانت تلقى أحيانا، بإحدى التعليقات التى قد تكون مقصودة أو.. قد تفسر على أنها كذلك.

قد تقول عندما يجهز جريجور تماما على طعامه «حسنا، لقد أعجبه الغذاء، اليوم» و.. عندما لا يكون قد قارب الطعام وهذا ما أخذ يحدث أكثر فأكثر باطراد فإنها تقول غالبا فى حزن (لقد ترك كل شىء كما هو مرة أخرى).

وعلى الرغم من أن جريجور لم يكن يسعه أن يحصل مباشرة على الأخبار إلا أنه يتسمع إلى الحجرات المجاورة وما تكاد ترتفع الأصوات حتى يسرع نحو باب الحجرة ملتصقا به ضاغطا كل جسده إليه. لم تجر ثمة أحاديث تتناوله بحال من الأحوال فى الأيام الأولى على وجه الخصوص ولا حتى عن طريق غير مباشر. و.. لمدة يومين كاملين كانت ثمة قرارات تصدر عند تجمعهم إلى كل وجبة كانت تتناول ما يجب عليهم عمله لكن.. هذا الموضوع كان يثار أيضا بين الوجبات ذلك أنه كان يوجد دائما عضوان هناك على الأقل من أعضاء الأسرة بالمنزل بما أن أحدا منهم لم يكن يرغب فى أن يبقى وحده فى الشقة، ثم أنهم لم يفكروا أيضا فى مغادرتها جميعا فى وقت معا.

ولقد حدث فى نفس اليوم الأول من تلك الأيام أن ركعت الطباخة - لم يكن محددا مدى معلوماتها عن الحالة ولا كيف بلغتها تلك المعلومات - عند قدمى والدته ورجتها أن تسمح لها بالذهاب وعندما رحلت بعد ذلك بربع ساعة لهجت بالشكر على طردها بينما اغرورقت عيناها بالدموع كأنما عرفانا بالخير العميم الذى أنعم به عليها و.. دونها تريث، أقسمت يمينا مؤكدة بأنها سوف لا تتفوه مطلقا بكلمة واحدة لأى شخص كان عما حدث.

وأصبح على أخت جريجور أن تطبخ أيضا الآن مساعدة لوالدتها. لم يكن المطبخ فى الحقيقة أمرا ذا بال لأنهم لم يكونوا تقريبا يأكلون أى شيء وكان جريجور يسمع دائما أحد أفراد الأسرة يحاول عبثاً أن يحث الآخر على أن يأكل إلا أنه لم يكن يتلقى ردا سوى «شكرا، لقد أكلت ما يزيد عن كفايتى» أو شيئا من هذا القبيل ولعلهم لم يكونوا يشربون شيئا كذلك وكانت أخته تلح على والدها مرة بعد أخرى تسأله إن كان يرغب فى شيء من البيرة وتعرض استعدادها عن طيب خاطر لإحضارها بنفسها و.. إذا لم يحر جوابا باردا على إلحاحها اقترحت إن فى إمكانها أن ترسل البواب ليحضرها و.. هكذا حتى لا تعود به حينئذ حاجة إلى مواصلة الاعتذار فى رقة وإنما تنطلق «لا» مدوية صادرة عن والده فلا يبقى ثمة ما يقال بعد ذلك فى هذا الشأن.

و.. ضمن أحداث ذلك اليوم الأول شرح والد جريجور وضع الأسرة المالى والآمال التى يتعلقون بأذيالها لكل من والدته وشقيقته. وكان ينهض تاركا المائدة من حين لآخر لكى يخرج إيصالا أو مذكرة من داخل الخزانة الحديدية الصغيرة التى كانت هى كل ما تمكن من إنقاذه وسط انهيار تجارته منذ خمس سنوات. وقد كان فى استطاعة المرء أن يسمعه وهو يعالج فتح المقعد التركيب و.. يسمع خشخشة الأوراق عندما ينزعها ثم.. صوت إغلاق الخزينة ثانية، ذلك التقرير الذى أعلنه والده كان هو أول تصريح سار يسمعه جريجور منذ بداية سجنه. فقد كان موقنا أنه لا شيء قد تبقى بعد من تجارة والده، فوالده لم يكن قد صرح على الأقل بشيء يفيد عكس هذا و.. لم يكن هو قد سأله بالطبع صراحة فى هذا الخصوص.

كانت رغبة جريجور الوحيدة إذ ذاك هى أن يبذل جهد ما يستطيع لكى يعين أسرته على أن تنسى بأقصى ما يسعه من السرعة تلك الكارثة التى انقضّت على المتجر وألقت بهم جميعا فى حافة من اليأس المطبق. وهكذا كان قد نهض لكى يعمل بحماس ولم يلبث حتى تحول من كاتب صغير إلى تاجر متجول، تناوشه بالطبع فرص أعظم لكسب المال وسرعان ما تحول نجاحه إلى قطعة كبيرة مستديرة من العملة أمكنه أن يضعها فوق المائدة لدهشة أسرته وسعادتها. تلك كانت أياما مجيدة بالطبع و.. لن تكرر تلك الأيام. لن تكرر على الأقل نفس ذلك المجد على الرغم من أن جريجور قد كسب فيها بعد الكثير من المال حتى أصبح قادرا على مواجهة كافة نفقات الأسرة و.. قد قام بذلك. ولقد تعودت الأسرة ببساطة على هذا كما تعوده جريجور. فكان المال يؤخذ بامتنان. و.. يعطى عن طيب خاطر. لكن لم تكن ثمة فورة واحدة غير معتادة من دفء العاطفة. كان قد ظل متآلفا فقط مع شقيقته. ولقد كانت ضمن الخطط السرية فيما يختص بها - هى التى تهوى الموسيقى على عكسه ويمكنها أن تعزف عزفا مؤثرا على الكمان- خطة ارسالها فى العام التالى للدراسة فى الكونسيرفاتوار. على الرغم من النفقات الباهظة التى تتطلبها تلك الدراسة والتى يجب تدبيرها بطريقة ما وكان ذكر الكونسيرفاتوار يتردد غالبا فى الأحاديث التى كانت تدور بينه وبين شقيقته فى أثناء فترات زيارته القصيرة للمنزل لكن دائما كمجرد حلم جميل لن يقدر له أن يتحقق ولقد كان والداه يعارضان حتى تلك الإشارات البريئة إليه إلا أن جريجور كان قد بت فى أمره بصورة قاطعة و.. كان قد انتوى أن يعلن تلك الحقيقة بما يلزمها من الخطورة والأهمية فى يوم عيد الميلاد.

تلك كانت هى ما تدور فى رأسه من الأفكار ـ العقيمة تماما فى وضعه الراهن بينما كان قد انتصب واقفا خلف الباب ملتصقا به منصتا. وكان ينصرف أحيانا عن التسمع و.. أحيانا ما كانت رأسه تسقط فى إهمال مستندة إلى الباب لإرهاقه الشديد إلا أنه كان يتمالك نفسه على الفور. ذلك أن أقل صوت يمكن أن يحدث ارتطام رأسه بالباب كان من الممكن سماعه فى الخارج و.. كان حديثهم ينقطع تماما إذ ذاك و.. قد يقول والده بعد برهة (ترى ما الذى يفعله هناك الآن) ملتفتا بلا شك نحو الباب و.. بعدئذ فقط يعود مرة أخرى إلى الاتصال تدريجيا ما انقطع من الحديث.

كان جريجور قد علم الآن على قدر ما وسعه العلم. فلقد كان والده يميل إلى التكرار عند تفسير أى شىء تقريبا لأنه كان قد نفض يديه من أمثال تلك الأمور منذ وقت طويل مضى و.. لأن والدته أيضا لم يكن فى مقدورها أن تدرك الأمور على الفور.. أن قدراً ما من المال المستمر ـ مبلغا ضئيلا حقا للغاية ـ كان قد أحيا بعضا من حطام ثروتهم وكان قد تزايد قليلا أيضا لأن أرباحه لم تكن قد مست فى تلك الأثناء. كما أن المال الذى يدفعه جريجور كل شهر للمنزل ـ لم يكن يستبقى لنفسه فقط سوى بضعة دولارات ـ لم يكن قد أنفق عن آخره بالإضافة إلى هذا ولقد كوّن مجموع بقاياه مبلغا يمكن اعتباره رأسمالا صغيرا. وخلف الباب أومأ جريجور برأسه فى تشوق متهللا لاكتشاف هذا التدبير غير المتوقع وذلك التبصر. لقد كان فى إمكانه بالفعل أن يسدد للرئيس مزيدا من ديون والده بما يحصل عليه من المال الإضافى وكان هذا سيعجّل حينئذ بحلول هذا اليوم الذى يتخلص فيه من وظيفته إلا أن أسلوب والده فى تدبير الأمر كان بلا شك أفضل.

إلا أن ذلك المبلغ لم يكن بحال من الأحوال يكفى لكى تعيش الأسرة مرتكنة إليه فربما بعد عام أو عامين على الأكثر يجدون أنفسهم مرغمين على الإنفاق من أساس المبلغ نفسه هذا كل ما فى الأمر.. لم يكن يجب أن يمس هذا المبلغ بل كان يجب أن يبقى جانبا للأيام الحالكة أما المال اللازم لنفقات المعيشة فكان يلزمهم أن يتكسبوه. ولقد كان والده يتمتع ما يزال بصحة كافية حتى الآن لكنه كان عجوزا و.. لم يكن قد اضطلع بأداء أى عمل من الأعمال طوال الأعوام الخمسة الماضية وهى أعوام التبطل الخمسة الأولى طوال حياته المليئة بالكفاح الشاق على الرغم من عدم نجاحها حتى أنه كان قد أصبح سمينا إلى حد ما و.. أصبح متثاقلا فى حركته.

أما والدة جريجور العجوز، فكيف يتسنى لها أن تتكسب خبزها وهى مريضة بالربو الذى كان يرهقها حتى عندما تتجول فى أنحاء الشقة ويضطرها إلى الاستلقاء على الكنبة فى معظم الأيام تجاهد لاهثة لالتقاط أنفاسها إلى جوار إحدى النوافذ المفتوحة و.. هل يمكن لشقيقته أن تعمل لتكسب رزقها.. لقد كانت مجرد طفلة فى السابعة عشرة من عمرها وكانت قد عاشت حياة لاهية حتى ذلك الحين، أنفقتها فى الاختيال بثيابها الأنيقة والنوم الطويل والمساعدة فى شئون البيت والخروج أحيانا فى بعض الزيارات البريئة والعزف فوق هذا كله على الكمان.

حينئذ وعلى الرغم من كل ما تقدم ذكره من الحاجة إلى تكسب سبيل العيش ترك جريجور الباب مبتعدا و.. ألقى بنفسه فوق الكنبة الجلدية الباردة التى بجوار الباب و.. قد أحس بالسخونة اللاهية من فرط الخجل والحزن.

وغالبا ما كان يستلقى فوق تلك الكنبة طوال الليالى متقلبا فوق غطائها الجلدى دون أن يغلبه النوم قط أو مرهقا لنفسه بالمجهود الخارق الذى يقتضيه دفع أحد المقاعد إلى النافذة و.. من ثم ينهض متشبثا بقاعدة النافذة مستندا إلى المقعد مائلا على زجاج النافذة فى تشوق واضح إلى الحرية التى كان يتيحها له دائما التطلع من خلال النافذة ذلك أن الضباب والغموض كان قد بدأ بعنف فى الواقع ويوما بعد يوم حتى تلك الأشياء التى لم يكن يهتم بالتطلع إليها ويحجبها عن رؤيته حتى المستشفى عبر الشارع الذى كان قد مل رؤيته دائما أمام عينيه كان قد أصبح الآن بعيدا عن مجال رؤيته. و.. لو أنه لم يكن يعرف أنه كان يقطن فى شارع شارلوت وهو شارع هادىء إلا أنه واحد من شوارع المدينة على الرغم من ذلك، لاعتقد أن نافذته إنما كانت تطل على فراغ مقفر حيث تختلط السماء الرمادية والأرض الرمادية بعضها ببعض و.. لم تكن أخته بسرعة بديهتها فى حاجة إلى أن تلاحظ أكثر من مرتين وجود المقعد ذى الذراعين إلى جانب النافذة حتى تدفعه بعد كل مرة ترتب فيها حجرة جريجور حتى فى النهاية إلى نفس مكانه هناك بجوار النافذة كما أنها كانت تترك النافذة مفتوحة أيضا على مصراعيها.

لو أمكنه أن يتحدث إليها وأن يشكرها على كل ما تقوم به من أجله فلقد كان يستطيع أن يقابل خدماتها بصورة أفضل مما يلقاها به بالفعل ولقد كان هذا يثقل عليه و.. لقد حاولت هى دون شك أن تواجه فى بساطة كل المكاره التى فرضها عليها قيامها بأداء واجبها نحوه ولقد نجحت بالطبع فى ذلك بمرور الوقت إلا أن ذلك الوقت كان قد علم

جريجور الكثير أيضا. فلقد كان جريجور يضيق بالأسلوب الذى كانت تدخل به حجرته فما كانت تكاد تدخلها حتى تندفع مباشرة نحو النافذة دون أن تتريث حتى لكى تغلق الباب كما اعتادت أن تفعل فى عناية حتى تحجب مرأى حجرة جريجور عن أنظار الآخرين و.. من ثم تفتح مصراعى النافذة بأصابع متعجلة كما لو كانت على وشك الاختناق، لتتوقف بعدئذ لحظة أمام تيار الهواء المطلق فى برود مرير وتتردد أنفاسها عميقة مضطربة ولقد كان اندفاعها الصاخب ذاك يكدر جريجور مرتين كل يوم فكان يربض مرتجفا تحت الكنبة طوال الوقت متيقنا تمام اليقين من أنها قد كفته مشقة الانزعاج الذى لم تكن تتحمله قط ببقائها فى وجوده بداخل الحجرة دون أن تسرع بفتح النافذة.

وفى إحدى المناسبات بعد حوالى شهر من تحول جريجور، وبعد أن لم يعد هناك ما يدعوها إلى أن تظل على فزعها عند رؤيته، كانت قد أتت مبكرة قليلا على غير عادتها، ووجدته محدقا من خلال زجاج النافذة فى سكون تام، وقد بدا كما لو كان غولا فى هيئته تلك. ولم تكن الدهشة لتستولى على جريجور لو أنها لم تدخل الحجرة مطلقا، ما دامت لن تتمكن فورا من فتح النافذة، بينما كان يقف أمامها هناك، إلا أنها لم تتراجع فحسب، بل قفزت راجعة كأنها واجهت خطرا، وصفقت الباب.. فانغلق فى ضجة صاخبة حتى أن الغريب ما كان ليحسبه فقط إلا مستلقيا هناك فى انتظارها وقد انتوى أن ينهشها. ولقد اختبأ فى الحال تحت الكنبة بالطبع، لكن كان عليه أن يبقى منتظرا حتى الظهر حتى تعاود الدخول ثانية إلى حجرته ولقد بدت إذ ذاك ملهوفة على غير العادة، غاية اللهفة؟ ولقد أتاح له ذلك أن يدرك كم كان مرآه شنيعا فى

نظرها حتى الآن، أنه كان مقدرا له أن يبقى على شناعته تلك.. وكم كانت لابد تتكبد من الجهد، حتى تمنع نفسها من الفرار لرؤية ذلك الجزء الصغير من جسمه الذى كان يبرز خارجا من تحت الكنبة، ولكى يجنبها - لهذا - رؤية ذلك الجزء من جسمه، حمل ذات يوم ملاءة على ظهره إلى الكنبة، وقد اقتضاه ذلك أربع ساعات من العمل - ثم .. نشرها فوقها بحيث تحجبه كلية حتى لا تتمكن من رؤيته، ولو اضطرت حتى إلى أن تنحنى على الأرض! فهل رأت من غير الضرورى نشر تلك الملاءة.. إذن لكانت قد رفعتها ثانية بالتأكيد، من فوق الكنبة، فلقد كان واضحا بصورة كافية - أن تستر جريجور، واحتجابه ذاك، لم يكن ليريحه فى شىء، إلا أنها تركتها كما هى فى مكانها، ولقد خيل لجريجور حتى أنه قد لمح فى عينيها نظرة امتنان عندما رفع الملاءة برأسه قليلا، فى حذر، ليرى أثر ذلك الترتيب الجديد عليها!.

لم يستطع والداه أن يقدما على دخول حجرة جريجور طوال الأسبوعين الأولين، وغالبا ما كان يسمعهما وهما يعبران عن تقديرهما لنشاط شقيقته فى حين أنهما كثيرا ما كانا من قبل قد انتهراها، لكونها فى ظنهما ابنة غير ذات نفع على نحو ما. إلا أنهما الآن أباه وأمه كليهما غالبا ما كانا ينتظران فى الخارج أمام الباب، فى أثناء قيام شقيقته بترتيب حجرته، وكان عليها فور خروجها أن تنهى إليهما كيف كانت الأمور تبدو بداخل الحجرة على وجه الدقة.. ما الذى أكله جريجور، وكيف تمكن الآن من تدبير أموره، وعما إذا لم يكن ثمة احتمال لبعض التحسن الطفيف فى حالته. وسرعان ما بدأت أمه تعلن فى الحال، فوق ذلك، رغبتها فى زيارته فى إلحاح، إلا أن والده

وشقيقته حاولا فى البداية أن يصرفاها عن رغبتها تلك، بمجادلات استمع إليها جريجور بانتباه وتأييد شديدين، فى وقت معا! إلا أنها اضطرتهما إلى منعها بالقوة فيما بعد. لكنها عندما هتفت صارخة: «دعونى أدخل لرؤية جريجور.. إنه ابنى التعس، ألا يمكنكما أن تدركا أننى يجب أن أذهب إليه؟».. رأى جريجور أنه ربما كان من المستحسن أن يدعوها تدخل إليه، ليس يوميا بالطبع، لكن مرة، ربما كل أسبوع، فهى فوق كل شىء تدرك الأمور، على نحو أفضل كثيرا من إدراك شقيقته، التى لم تكن سوى طفلة، على الرغم من الجهود التى تقوم بها، والتى ربما كانت تقوم بها بدافع من مجرد طيش صبيانى فحسب!.

وسرعان ما تحققت رغبة جريجور لرؤية أمه.. لم يرغب فى الظهور أمام النافذة، لا مراعاة لوالديه، بل لأنه لم يمكنه أن يزحف موغلا فى التباعد، خلال بضعة الياردات القليلة المربعة التى كانت فى متناول حركته، والتى تشكل مساحة أرضية الحجرة الخالية، كما لم يكن ليحتمل الاستلقاء مستريحا فى سكون، طوال الليل، على حين أنه قد بدأ يفقد بسرعة كل ما كان لديه من شهية للطعام ولهذا فقد كان قد تعود لمجرد الرغبة فى التجديد، على أن يزحف فى اتجاهات متقاطعة فوق الجدران، والسقف، ولقد كان ذلك أفضل كثيرا من الاستلقاء فوق الأرض، فلقد كان فى مقدور «المرء» أن يتنفس بحرية، كما أن جسم «المرء» كان يتطوح، ويترنح فى خفة، وفى غاية الاستغراق الذى يتولد عن ذلك التوقع، الذى قد يسفر عن فقدانه السيطرة - لدهشته هو نفسه - وسقوطه من ثم .. مرتطما بالأرض. إلا أنه كان يسعه أن يحكم السيطرة على جسمه على نحو أفضل - كثيرا من ذى قبل، كما أن مثل

تلك السقطة الخطرة، لم تكن لتصيبه بأى ضرر. ولقد لاحظت شقيقته تلك التسلية الجديدة التى كان جريجور قد اهتدى إليها ـ فلقد كان قد ترك خلفه آثارا لتلك المادة اللزجة التى تفرزها حوافره، فى كل بقعة زحف فوقها ـ وقررت فى نفسها أن تهيىء له بقدر الإمكان، أوسع مجال ممكن ليزحف فيه، وأن تزيل قطع الأثاث التى تعوق حركته، وفى مقدمتها صندوق الملابس، ومائدة الكتابة. إلا أن هذا العمل كان أصعب من أن تضطلع بالقيام به وحدها، ولم تجرؤ على طلب العون من والدها، أما فيما يختص بالخادمة، وهى فتاة صغيرة فى السادسة عشرة فقد كان لديها الجرأة لتواصل البقاء بعد رحيل الطباخة، فلم يكن يمكنها أن تطلب مساعدتها، ذلك لأنها كانت قد اشترطت ـ كهبة خاصة ـ أن يؤذن لها بإغلاق باب المطبخ عليها، وأن تفتحه لدواع محددة. وعلى هذا فلم يكن أمامها سوى أن تستدعى والدتها، حينما يكون والدها خارج المنزل، وقد لبت السيدة العجوز تلك الدعوة فى فضول مفعم بالفرح المتشوق، الذى تبدد مع ذلك عند باب حجرة جريجور، ولقد دخلت شقيقة جريجور أولا لتطمئن على كل شىء، قبل أن تسمح لوالدته بالدخول، وفى سرعة خاطفة جذب جريجور الملاءة إلى أسفل، وطواها طيات عديدة، حتى تبدو كما لو كانت قد ألقيت بالفعل، عرضا فوق الكنبة. ولم يحملق خارجا من تحت الكنبة، فى هذه المرة، وقد زهد فى الاستمتاع بمشاهدة أمه فى تلك المناسبة، سعيدا فقط بمجرد دخولها حجرته! قالت لها أخته : «ادخلى إنه مختبىء»! وهى تسحب أمها بيدها، على ما يبدو، إلى الداخل! وكان بإمكان جريجور أن يتسمع الآن إلى جهاد المرأتين فى زحزحة صندوق الملابس العتيق

الثقيل من مكانه، بينما تطالب أخته بالقيام بالعبء الأكبر من المجهود، دون أن تلقى بالا إلى تحذيرات أمها، التى كانت خائفة من احتمال إفراط ابنها فى إرهاق قواها فوق الطاقة! ولقد استغرق ذلك وقتاً طويلا! وبعد أن مرت ربع ساعة على الأقل عليهما وهما تجذبان ذلك الصندوق، اعترضت أمه قائلة، بأنه من الأفضل أن يظل ذلك الصندوق فى مكانه كما هو، لأنه ـ أولاً ـ كان ثقيلا جدا، ولن يمكن إخراجه قبل عودة والده إلى المنزل، كما أن بقاءه على هذا النحو، فى وسط الحجرة، يعوق حركة جريجور، بينما لا يبدو مؤكدا ـ من ناحية أخرى ـ أن إزالة الأثاث سيفيد جريجور فى أى شىء! وقد كانت مدفوعة على عكس ذلك، إلى التفكير بأن رؤية جدران الحجرة العارية كانت قد ضغطت على قلبها، فلماذا لا يقدر لجريجور أن يحس الإحساس نفسه؟ بما أنه قد اعتاد على اثاثه تلك الفترة الطويلة، وأنه ربما أحس بالضياع تماما بدونه.. ثم استنتجت قائلة فى صوت خفيض : «ثم ألا تبدو» ولقد كانت فى الحقيقة تتحدث هامسة فى الأغلب، طوال الوقت، كما لو كانت تفعل ذلك، كى لا تتيح لجريجور ـ الذى لم تكن تدرى فى أى مكان مختبئا على وجه التحديد ـ أن يسمع حتى أقل همساتها، لأنها كانت مقتنعة بأنه لن يمكنه أن يفهم معنى كلماتها : «ألا تبدو كما لو كنا نوحى إليه عندما ننقل أثاثه بعيدا، بأننا قد فقدنا الأمل نهائيا فى شفائه، وأننا إنما نتركه وحيدا فى قسوة؟.. إننى أعتقد أنه من الأفضل أن نترك حجرته بنفس حالتها التى كانت عليها دائما، فإذا ما عاد إلينا ثانية كما كان، فلسوف يجد أن شيئا لم يتغير، وسيمكنه حينئذ بسهولة أكثر أن ينسى ما حدث له فى تلك الأثناء!» ولقد تحقق جريجور ـ عند سماعه

لتلك الكلمات التى قالتها أمه عن أن انتقاده لكل أشكال الحديث المباشر طوال الشهرين الماضيين، كان بالإضافة إلى اطراد الحياة العائلية الممل، لابد قد أصابه بالتشوش العقلى، وإلا فإنه لا يمكن أن يعلل حقيقة أنه قد تطلع باهتمام تام إلى إخلاء حجرته من الأثاث. فهل يريد حقا أن تتحول حجرته الدافئة، المجهزة على ذلك النحو المريح، بأثاث الأسرة العتيق، إلى حب خاو سوف يمكنه دون شك أن يزحف خلاله فى شتى الاتجاهات دونما عائق لكن على حساب إهدار كل ذكرى لأرضيته البشرية، فى نفس الوقت! لقد كان قد أوشك حقا على أن ينسى تماما أن صوت أمه الذى لم يكن قد سمعه منذ وقت طويل، كان هو فقط ما دفعه للعدول عن ذلك،.. إن شيئا لن يخرج من حجرته، ويجب أن يبقى كل شىء كما كان من قبل، إنه لا يمكنه أن يستغنى عن ذلك التأثير الطيب الذى يعكسه وجود الأثاث على إدراكه وحتى لو عاقه الأثاث فى زحفه اللاواعى عندما يدور بلا توقف، ويدور داخل الحجرة، فلن يكون ذلك عبئا فى وجوده بداخلها، بل ميزة هائلة!.

إلا أن شقيقته كانت ترى - لسوء الحظ - عكس ذلك الرأى، وكانت قد أصبحت معتادة، وليس دونما سبب - على أن تعتبر نفسها خبيرة فى شئون جريجور، وكأنما لمناقضة والديها، وعلى هذا فقد كانت نصيحة أمها كافية لتجعلها تصمم ليس فقط على إزالة الصندوق ومائدة الكتابة، تبعا لما انتوته فى البداية، بل على إزالة كل ما فى الحجرة، فيما عدا الكنبة التى لا غنى له عنها. ولم يكن ذلك التصميم بالطبع، مجرد نتيجة لعناد صبيانى، وللثقة بالنفس التى كانت قد جنتها أخيرا، إلى هذا الحد غير المتوقع وفى مقابل ذلك البذل.. بل لأنها

كانت قد أدركت فى الحقيقة، إن جريجور فى حاجة إلى مساحة متسعة ليزحف فوقها، فى حين أنه ـ من ناحية أخرى ـ لم يكن قط يستعمل ذلك الأثاث بالمرة، وهذا ما كان يبدو واضحا ! وثمة عامل آخر، ربما كان أيضا هو ذلك المزاج المتحمس، لفتاة مراهقة، ذلك المزاج الذى يندفع إلى استهلاك نفسه فى كل مناسبة.. والذى أغرى «جريتا» أخيرا على أن تبالغ تجسيم الرعب الذى تعكسه ظروف شقيقها، كى يتسنى لها أكثر، أن تضطلع بأداء كل ما قد يتطلبه من أعباء! ففى حجرة يستقل جريجور وحده، وحتى بجدرانها العارية لم يكن سواها، ثمة من يحق له أن يضع قدميه مطلقا!.

وعلى هذا لم تكن لتتزحزح عن تصميمها أمام والدتها، التى بدت فوق ذلك متعجلة فى داخل حجرة جريجور، وغير واثقة لهذا من تماسكها.. وسرعان ما لجأت إلى الصمت، وعاونت ابنتها بأقصى ما فى وسعها، لدفع الصندوق إلى الخارج. ولقد كان فى مقدور جريجور أن يعيش الآن بدون الصندوق، لو اضطره الأمر إلى ذلك، لكنه كان يجب أن يحتفظ بمائدة الكتابة. وما أن فرغت المرأتان من دفع الصندوق إلى خارج حجرته، حتى أخرج جريجور رأسه من تحت الكنبة لكى يرى كيف يسعه أن يتدخل برفق وحذر، بقدر الامكان! لكن كانت أمه ـ لسوء الحظ ـ هى التى رجعت أولا، تاركة «جريتا» تطوق الصندوق بذراعيها، فى الحجرة المجاورة، حيث كانت تحاول زحزحته بمفردها دون أن يتحرك أمامها ـ بالطبع ـ من مكانه. ولم تكن أمه معتادة مع ذلك على رؤيته ـ فربما أحزنتها رؤيته ـ ولهذا تقهقر جريجور مسرعا فى ذعر إلى الطرف الآخر من الكنبة، لكن لم يسعه أن يمنع اهتزاز الملاءة قليلا

من الأمام. وقد كان ذلك كافيا لجذب انتباهها، لكنها توقفت وظلت ساكتة للحظة، ومن ثم عادت إلى «جريتا».

وعلى الرغم من أن جريجور ظل يؤكد لنفسه أن شيئا لم يكن قد وقع خلافا للعادة، وأن قليلا فقط من قطع الأثاث كان يجرى استبدالها إذ ذاك، إلا أنه كان عليه فى الحال أن يقر بأن اندفاع كلتا المرأتين هنا وهناك ونداءاتها الخافتة، وأصوات جرجرة الأثاث فوق الأرض كانت قد آلمته كلها، كما لو كانت ضجيجا هائلا صادرا من كل الجهات فى وقت معا، ومهما حاول أن يحنى رأسه، وأن يلصق سيقانه بجسمه، أو ينكمش على نفسه ملتصقا بالأرض فقد كان عليه أن يعترف بأنه لم يكن ليحتملها طويلا! كانت المرأتان تقومان بإخلاء حجرته تماما، دافعتين بكل شىء كان قد أحبه إلى الخارج.. الصندوق التى كان يحتفظ فيه بمنشار الحلية، وبعض الأدوات الأخرى، كان قد تم سحبه بالفعل إلى الخارج.. وكانتا الآن تزيحان مائدة الكتابة التى كانت قد تهاوت تقريبا مائلة نحو الأرض. تلك المائدة التى كان قد قام بأداء واجباته المنزلية فوقها حينما كان طالبا بكلية التجارة، وحينما كان تلميذا بالمدرسة الابتدائية!. لم يعد لديه مزيد من الوقت لإضاعته فى تقدير النوايا الطيبة لهاتين المرأتين اللتين كان قد نسى الآن وجودهما على الأغلب، فلقد كانتا متعبتين للغاية حتى أنهما كانتا تعملان فى صمت، ولم يكن ليسمع فقط سوى وقع أقدامها!.

ولهذا اندفع خارجا - كانت المرأتان تنحنيان إلى مائدة الكتابة فى الحجرة المجاورة، حتى تتمكنا من التقاط أنفاسهما - ولقد غير اتجاهه أربع مرات، حيث لم يكن يدرى ما الذى كان ينبغى عليه أن ينقذه أولا،

ثم.. اصطدم على الحائط المقابل الذى كان قد أصبح عاريا تماما بالفعل خلافا لما كان يتوقعه - بصورة تلك السيدة التى كانت ترتدى كل ذلك الفراء، فزحف صاعدا نحوها على الفور، وضغط جسمه إلى الزجاج الذى بدا سطحه مناسبا تماما للثبات فوقه.. وأراح بطنه الملتهبة!. لن يمكن لأحد أن يرفع تلك الصورة التى كانت تختفى تحته على الأقل!. أدار وجهه ناحية الباب المؤدى إلى حجرة الجلوس، حتى يمكنه أن يرقب المرأتين عند عودتهما!.

لم تسمحا لنفسيهما بفترة طويلة من الراحة، بل رجعتا لتوهما، وكانت «جريتا» قد لفت ذراعها حول أمها، تسندها، قائلة وهى تلتفت حولها: «حسنا» ما الذى سوف نأخذه الآن؟» فالتقت عيناها بجريجور فوق الحائط إلا أنها احتفظت بهدوئها.. ربما من أجل والدتها، وأحنت رأسها نحو أمها إلى أسفل، حتى تبعدها عن التطلع إلى أعلى، ثم قالت فى غير تكلف، على الرغم من اضطراب صوتها: «هيا، أليس من الأفضل أن نعود إلى حجرة الجلوس، كانت نواياها واضحة غاية الوضوح بالنسبة لجريجور، فلقد أرادت أن تشيع أمها إلى الداخل بسلام، ومن ثم تطارده، لكى يهبط من على الحائط «حسنا، دعها تفعل ذلك»!. فلقد تعلق بصورته، ولن يتركها، ولسوف يطير مندفعا فى وجه «جريتا».

إلا أن كلمات «جريتا» كانت قد نجحت فى إزعاج أمها التى كانت قد انحرفت خطوة إلى جانب، ولمحت الكتلة البنية الضخمة، فوق ورق الحائط المنقوش بالزهور، وقبل أن تعى حقا أن ما رأته كان هو جريجور، صاحت فى صوت خشن مدو : «آه يا إلهى، يا إلهى»! وتهاوت

مفرودة الذراعين فوق الكنبة كما لو كانت أسلمت الروح. ولم تحرك ساكنا!.

صاحت شقيقته، وهى تهز قبضتها متطلعة نحوه : «جريجور» كانت هذه هى المرة الأولى التى خاطبته فيها مباشرة، منذ تحوله، واندفعت إلى داخل الحجرة المجاورة بحثا عن إحدى زجاجات العطور، لكى تساعد أمها على أن تفيق من إغمائها ورغب جريجور كذلك فى تقديم المساعدة، فلقد كانت هناك ثمة فسحة من الوقت لإنقاذ الصورة ـ لكنه كان ملتصقا جدا بالصورة وكان عليه أن ينزع نفسه منها انتزاعا ومن ثم اندفع يعدو خلف شقيقته إلى داخل الحجرة الأخرى، كما لو كان يمكنه أن ينصحها بما ينبغى عليها عمله، وكانت قد بحثت فى تلك الأثناء بين عديد من الزجاجات الصغيرة، وعندما استدارت خلفها اضطربت فى فزع عند رؤيته، وسقطت إحدى الزجاجات من يدها، وتحطمت فوق الأرض، وجرحت إحدى الشظايا وجه جريجور، وطرطشت فوقه قطرات من مادة طبية قارضة، وجمعت «جريتا» كل الزجاجات التى تمكنت من حملها وأسرعت بها إلى أمها دون أن تتريث لحظة واحدة، ثم دفعت الباب بقدمها، فانصفق بفرقعة مدوية، وأصبح جريجور الآن معزولا عن أمه، التى ربما كانت توشك الآن على الموت بسببه، إلا أنه لم يجرؤ على فتح الباب خوفا من إفزاع شقيقته التى كان عليها أن تبقى إلى جوار أمها، ولم يكن أمامه أى شىء آخر ليفعله سوى الانتظار متكدرا بسبب تأنيبه لنفسه، وقد بدأ ـ لخوفه ـ يزحف هنا وهناك فوق كل شىء.. فوق الجدران والأثاث والسقف، وفى غمرة يأسه أخيرا عندما أخذت الحجرة بكاملها تدور حوله، سقط منحطا فى وسط المائدة الكبيرة.

وانقضت فترة قصيرة من الوقت وكان جريجور ما يزال مستلقيا هناك فى وهن، بينما كان الهدوء يلف كل شىء حوله. وربما كان هذا فألا حسنا. ثم دق جرس الباب وكانت الخادمة بالطبع محبوسة فى داخل المطبخ المغلق عليها. وكان على «جريتا» أن تفتح الباب. كان والده هو القادم. وكانت الكلمات الأولى التى تفوه بها هى : «ما الذى حدث؟» فلابد أن وجه جريتا كان قد أوضح له كل شىء!.

وأجابته «جريتا» فى صوت خفيض، مخبئة رأسها لا شك فى صدره: «كان قد أغمى على أمى، ولكنها تحسنت الآن!.. وقد شرد جريجور خارجا من حجرته!.»

فقال والده : «هذا بالضبط هو ما توقعته.. هذا هو ما كنت أقوله لك بالضبط إلا أنكن لا تستمعن إلى شىء، أيتها النسوة!» بدا واضحا لجريجور أن والده كان قد تلقى أسوأ تفسير من تقرير «جريتا» المقتضب للغاية وتوهم أن جريجور قد أذنب بارتكابه جرما رهيبا، لهذا يجب على جريجور أن يحاول استعطاف والده بما أنه لا يتيسر له الوقت، ولا الوسيلة لمحاولة شرح الأمر! وعلى هذا فقد انطلق هاربا نحو باب حجرته، ثم ربض أمامه، لكى يتيح لوالده أن يرى عندما يدخل قادما من الصالة، أن لدى ابنه نية طيبة للدخول ثانية إلى حجرته على الفور وأنه من غير الضرورى دفعه على الدخول مرغما.. ولو أن الباب فقط كان مفتوحا لكان قد اختفى إذن لتوه!.

إلا أن والده لم يكن فى حالة يمكنه فيها إدراك مثل تلك التوضيحات، بل صاح قائلا فور ظهوره، فى صوت بدأ الغضب فى زمته والانتصار معا لأول وهلة : «آه..» فحسب المسلّم به أنه كان قد

استغرق للغاية أخيرا فى تسليته الجديدة، فى الزحف فوق الجدران، فلم يعد لديه نفس الاهتمام السابق بما كان يحدث فى أى مكان آخر من الشقة، ويجب عليه حقا أن يعد نفسه لمواجهة بعض التغييرات. لكن على الرغم من هذا كله، هل يمكنه أن يكون هذا هو أباه؟ ذلك الرجل الذى اعتاد أن يستلقى فى سأم، غارقا فى الفراش عندما كان جريجور يخرج فى إحدى رحلات عمله، والذى كان يستقبله عند عودته ليلاً مستلقيا فوق مقعد مستطيل، مرتديا روبه المنزلى، والذى لم يكن يمكنه بالفعل أن ينهض على قدميه، وإنما يرفع ذراعيه فقط للتحية، والذى كان إذا خرج فى بعض المناسبات النادرة مع أسرته مرة أو مرتين فى العام.. فى أيام الآحاد.. فى مناسبات الأعياد، سار بين جريجور وبين أمه، اللذين كانا يسيران فى بطء على نحو ما ـ أكثر بطئا حتى من سيرهما ذاك البطىء، وقد ارتدى معطفه العتيق، دافعا نفسه إلى الأمام بمجهود، مستندا إلى عصاه ذات المقبض الملتوى، التى كان يتلمس بها الأرض فى حذر عند كل خطوة، والذى حينما كان يريد أن يقول شيئا ما، توقف تماما عن السير وجمع حراسه من حوله؟ لقد كان يقف هناك الآن فى هيئة ثابتة مرتديا بدلة أنيقة زرقاء اللون ذات أزرار مذهبة، كتلك التى يلبسها سعاة البنوك، وقد انتفخت ذقنه القوية المقسمة إلى شطرين فوق ياقة سترته العالية المنشاة، وتحت حاجبيه المنفوشين تلمع عيناه السوداوين فى يقظة، ونظرات نافذة وشعره الأبيض الذى كان أشعث ذات مرة، كان ممشطا الآن، منبسطا على جانبى مفرق يتألق مستقيما فى عناية. وخلع «الكاب» الذى يحمل شارة مذهبة ـ ربما كانت شارة أحد البنوك ـ وطوحه فى رمية واسعة عبر

الحجرة كلها.. إلى الكنبة، وبأطراف أذيال سترته الملقاة خلفه، ويداه غارقتان فى جيبى سرواله، تقدم نحو جريجور بوجه متجهم. وقد كان واضحا للغاية أنه لم يكن يدرى هو نفسه ما الذى كان ينوى أن يفعله، ورفع قدمه مع ذلك إلى أعلى، على نحو غير عادى، وكان جريجور مندهشا لضخامة كعبى حذائه.. إلا أن جريجور لم يجرؤ على أن يخاطر بمواصلة الوقوف أمامه، مدركا، كما أدرك منذ اليوم الأول فى حياته الجديدة، أن والده كان معتقدا فقط أن الأساليب الخشنة هى ما يلزم للتعامل معه، وعلى هذا، فقد انطلق يجرى أمام والده.. ويتوقف عندما يقف، ويندفع إلى الأمام ثانية عندما يشعر بأية حركة تند عن والده وبهذه الطريقة دارا فى داخل الحجرة عدة دورات دون أن ينتهى ذلك إلى نهاية حاسمة. ولم تكن العملية كلها فى الحقيقة تبدو فى صورة مطاردة لأنها كانت قد تمت بغاية البطء!. وهكذا لم يغادر جريجور الأرض، لأنه كان قد خشى أن يعتبر أبوه أية جولة له على الجدران، أو فوق السقف، شرا لعينا، إلا أنه فى نفس الوقت لم يحتمل مواصلة ذلك الشوط إلى أبعد من ذلك، لأنه بينما كان أبوه يخطو خطوة واحدة كان هو يقوم فى مقابلها بسلسلة كاملة من التحركات!. وكان قد بدأ يشعر الآن بتقطع أنفاسه، تماما كما لم تكن رئتاه تقومان بنشاطهما تلقائيا، فى حياته السابقة. وبينما كان مندفعا إلى الأمام محاولا أن يركز طاقته كلها فى الجرى، فاتحا عينيه فى صعوبة، لم يكن جريجور ليفكر فى أى مهرب آخر أكثر من مجرد التقدم إلى الأمام، ولما كان قد أوشك غالبا على أن ينسى، أن فى مقدوره أن يتحرك فوق الجدران، التى كانت قد انقسمت فى تلك الغرفة إلى قطع من الأثاث منحوتة فى

فخامة، وممتلئة بالعقد والفجوات، استقر شيء ما فجأة مرتطما بالأرض إلى جواره. وتدحرج أمامه! كانت تفاحة.. وتبعتها تفاحة أخرى على الفور!. وتوقف جريجور فى ذعر! لم يكن ثمة سبيل الآن لمواصلة الجرى إلى الأمام لأن والده كان قد صمم على إطلاق تلك القذائف نحوه!. كان قد ملأ جيوبه بتلك الثمار من أحد الأطباق الممتلئة فوق البوفيه، وراح الآن يسدد التفاحة بعد الأخرى دون أدنى اهتمام بإحكام التسديد فى حينه، وتدحرجت التفاحات الصغيرة الحمراء، كما لو كانت كل منها مشدودة بمغناطيس ومسددة نحو الأخرى.. وتدحرجت تفاحة لم تكن قد سددت بقوة كافية، فوق ظهر جريجور، ثم انزلقت دون أن تلحق به أى أذى إلا أن واحدة أخرى تبعتها على الفور، استقرت فى ظهره وغاصت فيه، وأراد جريجور أن يجر نفسه إلى الأمام، كما لو كان فى الإمكان ترك ذلك الألم المفزع، الذى لا يحتمل، خلفه، لكنه أحس به فى البقعة نفسها، كما لو كان قد ثبت فيها مسامير.. ومدد جسمه وتعطلت حواسه كلها.

وبآخر نظـــرة أمكنه أن يعيها، رأى باب حجرته وقد انفتح، واندفعت أمه خارجة منها، وخلفها شقيقته تطلق صرخاتها ـ فى قميصها الداخلى ـ لأن ابنتها كانت قد خلعت عنها ملابسها، حتى يسهل عليها التنفس بســهولة أكثر، ويمكنها أن تفيق من إغمائها! رأى أمه تندفع متجهة نحو والده.. واحتضنته، متحدة به فى وحدة كاملة ـ إلا أن عينى جريجور أطرقتا عند هذا الحد نحو الأرض ـ ويداها تلتفان حول عنق والــده، كما لو كانت تسـتعطفه أن يبـقى على حياة ابنها!.

بدت الإصابة الخطيرة التى أصابت جريجور، والتى أقعدته عن الحركة لأكثر من شهر ـ فقد كانت التفاحة قد انغرست فى جسمه كذكرى مرئية.. طالما أن أحدا لم يغامر بإزالتها وكأنها قد دفعت حتى والده نفسه إلى أن يتذكر أن جريجور كان واحدا من أفراد الأسرة، على الرغم من تعاسته الراهنة، وهيئته البشعة، ولا تجب معاملته باعتباره عدوا، وأن واجب الأسرة، على العكس من ذلك يقتضيها نبذ القرف، ومعالجة الصبر ولا شىء غير الصبر.

وعلى الرغم من أن إصابته تلك كانت قد شلت قواه عن الحركة ـ ربما إلى الأبد ـ وأصبح زحفه عبر حجرته بمرور الوقت، يستغرقه دقائق طويلة، وكأنه جريح عجوز ـ ولم يعد ثمة مجال الآن للتساؤل عن الزحف فوق الجدران ـ إلا أنه كان يرى أنه قد استعاض، إلى حد كاف، عن ذلك الضرر الذى ألم به، بحقيقة أن باب حجرة الجلوس ـ الذى كان قد اعتاد على مراقبته باعتباره لمدة ساعة أو ساعتين مقدما ـ كان يترك مفتوحا دائما كل ساعة، حتى أنه كان يمكنه، بينما كان يستلقى مختبئاً عن الأنظار وسط ظلام حجرته، أن يراهم جميعا بجوار المائدة، التى كانت تستقر فوقها لمبة مضاءة، وأن يستمع إلى حديثهم، بغاية الرضا، لأنه كان يختلف تماما عما كان قد تسمع إليه منهم من قبل، من أحاديث.

كان حديثهم يفتقر حقا إلى طابع الحياة الذى كان يطبعه فى الأوقات السابقة والذى كان يتذكره دائما فى شوق زائد، فى حجرات نوم الفنادق الضيقة، التى كان يتردد عليها ليستلقى مرهقا فوق الأسرة الرطبة، وكانوا يلجأون فى أغلب الأحيان إلى الصمت، وسرعان ما كان والده يستغرق نائما فى مقعده ذى المسند، وكانت والدته وشقيقته

تنبهان بعضهما إلى التزام الصمت. وقد كانت والدته تنحنى نحو اللمبة.. منكبة على بعض أشغال التطريز الفاخرة لأحد محلات بيع الملابس الداخلية، أما شقيقته التى كانت قد حصلت على وظيفة بائعة فى أحد المحلات فقد كانت تدرس الاختزال واللغة الفرنسية فى أثناء تلك الأمسيات، كمحاولة لتحسين وضعها وكان والده يستيقظ أحيانا.. فيقول لوالدته، متجاهلا تماما أنه كان نائما: (يا للكمية الهائلة من التطريز التى أنجزتها اليوم!). ومن ثم يستغرق ثانية فى النعاس مرة أخرى على الفور بينما تتبادل المرأتان ابتسامة متعبة.

وكان والده قد تشبث فى نوع من العناد بالبقاء مرتديا زى العمل حتى فى داخل المنزل. وظل روبه المنزلى معلقا بإهمال فوق شماعته. وكان ينام بملابسه كاملة حيث كان يجلس كما لو كان على أتم استعداد فى أية لحظة حتى بينما يكون فى منزله إلى تلبية إشارة أو نداء من رئيسه. وكنتيجة لذلك بدأ زيه الذى لم يكن قد تسلمه جديدا تماما عند بدء عمله فى الاتساخ، على الرغم من العناية الزائدة التى كانت توليه إياها الأم والأخت.. حتى يظل نظيفاً. وكان جريجور ينفق الأمسيات الطويلة محدقا فى بقع الشحم العديدة التى كانت تتناثر على ذلك الرداء الذى تلمع فوقه الأزرار المذهبة دائما فى غاية اللمعان، والذى يرتديه الرجل العجوز فى أثناء نومه مرهقا للغاية لكن فى سلام تام.

وعندما دقت الساعة معلنة العاشرة حاولت أمه أن توقظ أباه ببعض الكلمات الرقيقة وأن تدفعه بعد ذلك إلى الذهاب إلى فراشه. فلم يكن ليرتاح فى نومه. فى جلسته تلك فوق المقعد وقد كان النوم المريح هو كل ما يحتاجه. حيث كان يذهب إلى عمله فى الساعة السادسة صباحا..

إلا أنه كان يصر بالعناد الذى كان قد استولى عليه منذ أن أصبح ساعيا بالبنك على البقاء أطول مدة ممكنة بجوار المائدة على الرغم من أنه كان يغرق ثانية فى النعاس عادة وفى النهاية وبعد أقصى إلحاح ممكن كان ينهض من على المقعد ذى المساند ويتجه نحو فراشه.

ومهما كانت أمه وشقيقته تلحان على ملاحظته باستعجالاتهما الرقيقة فقد كان يهز رأسه ما يقرب من ربع الساعة مغلقا عينيه رافضا النهوض على قدميه. وكانت الأم تجذبه من كمه، هامسة فى أذنه بتردد. وكانت الأخت تترك دروسها لتعاون أمها فى مهمتها تلك. إلا أن والد جريجور لم يكن ليستجيب. بل كان يهبط غاطسا فى مقعده أكثر من ذى قبل. ولم يكن ليفتح عينيه حتى ترفعه المرأتان من تحت إبطيه فينظر إليهما واحدة بعد الأخرى معلقا عادة بقوله : (هذه هى حياتى.. وتلك هى سكينة وهدوء شيخوختى!). ومن ثم ينهض متساندا عليهما فى تثاقل كما لو كان عبئا ثقيلا بالنسبة لنفسه. ويدفعهما إلى أن توصلاه حتى الباب. وحينئذ يدفعهما بعيدا عنه ليواصل السير وحده. بينما كانت الأم تترك إبر تطريزها وكانت الابنة تترك قلمها. لتلحقا به.. وتسندانه ثانية.

فمن من أفراد تلك الأسرة المكافحة.. المرهقة.. كان يجد الوقت ليهتم بشئون جريجور، أكثر مما تتطلبه الضرورة القصوى؟ كان الاهتمام بشئون المنزل قد هبط أكثر فأكثر. وكانت الخادمة قد رحلت. وكانت تحضر فى الصباح وفى المساء غسالة ضخمة شرسة يتطاير شعرها الأبيض حول رأسها للقيام بالأعمال المنزلية المرهقة وكانت والدة جريجور تقوم بأداء كل شىء آخر بالإضافة إلى الأكوام الهائلة من أعمال التطريز. أما حلى الأسرة ومقتنياتها جميعا، تلك التى

اعتادت أمه وشقيقته أن ترتدياها بخيلاء فى الحفلات والسهرات، فكان عليها أن تباع. كما اكتشف جريجور ذات مساء عندما سمعهم جميعا يتناقشون حول الأثمان التى كانوا ينتظرونها. إلا أن أشد ما كان يسخطهم، هى حقيقة أنهم لم يكن يمكنهم إخلاء الشقة التى كانت قد أصبحت متسعة الآن جدا، بالنسبة لظروفهم الراهنة لأنهم لم يكن يمكنهم أن يهتدوا إلى وسيلة ينقلون بها جريجور.

مع أن جريجور كان يرى بوضوح تام، أن ما يتعلق به من اعتبارات لم يكن هو اللعبة الأساسية التى تمنعهم من الانتقال. لأنه كان يمكنهم بسهولة أن يعوقهم حقيقة عن الانتقال إلى شقة أخرى. فقد كان تقريبا هو يأسهم التام. اعتقادهم أن الأقدار قد اختصتهم بمصيبة. لن يحدث لها مثيل قط لأى من أقربائهم أو معارفهم. فلقد كانوا قد بلغوا أقصى ما يمكن أن تبلغه الرؤساء من الناس تحت ضغط الأقدار. كان الأب يحضر الفطور لصغار الكتبة فى البنك. وكانت الأم قد نذرت كل قواها فى تطريز الملابس للغرباء أما الأخت فكانت تتراكض هنا وهناك خلف منضدة البيع، تلبية لرغبة الزبائن. أما ما عدا ذلك فلم يكن لديهم من الجهد ما يغريهم على أدائه. وكان الجرح الذى فى ظهر جريجور قد بدأ يولمه من جديد حينما كانت أمه وشقيقته، بعد أن رافقتا والده إلى الفراش، وقد عادتا ثانية وتركتا عملهما واقتربتا من بعضهما وجلستا متلاصقتين.. ثم أشارت والدته عندئذ إلى حجرته قائلة : (اغلقى ذلك الباب يا جريتا).. وغرق جريجور ثانية فى ظلام حجرته بينما اختلطت دموع المرأتين فى الحجرة الأخرى أو لعلهما جلستا بلا دموع تحدقان فى المائدة!.

وأصبح من النادر أن ينام جريجور بطول الليل أو النهار وكانت تستبد به على الأغلب فكرة أنه ما أن يفتح الباب ثانية، حتى ينهض للقيام بكل أعباء الأسرة مرة أخرى. كما اعتاد أن يفعل من قبل. وظهر شبح الرئيس. والباشكاتب فى مخيلته مرة أخرى بعد تلك الفترة الطويلة والتجار المتجولين والمستخدمين.. والعمال الذين بدوا بذلك الحمق.. واثنين أو ثلاثة من أصدقائه الذين يعملون فى مؤسسات أخرى. وخادمة فى إحدى الفنادق الريفية ذكرى جميلة عابرة، وعاملة خزينة فى أحد محال بيع القبعات. كان قد تودد إليها بإخلاص. لكن بغاية البطء ظهر كل هؤلاء. وبالاضافة إليهم غرباء أو أناس كان قد نسيهم تماما إلا أنهم جميعا بدلا من أن يساعدوه أو يعينوا أسرته لم يعثر المرء على أى أثر لهم قط. ولقد كان سعيدا باختفائهم. وفى أحيان أخرى. لم تكن حالته تسمح له بالتفكير فى أسرته. وإنما كان مفعما فقط بالغضب لإهمالهم له إلى ذلك الحد.. وعلى الرغم من أنه لم يكن لديه فكرة محددة عما كان يمكن أن يأكله. فقد كان يفكر فى الدخول إلى حجرة الكرار ليحصل على الطعام الذى كان فوق كل شىء حقا مشروعا له حتى ولو لم يكن جائعا ولم تلبث شقيقته حتى اهتمت بأن تحضر له ما كان يرضيه. لكن فقط فى الصباح، فى المساء فقد كانت تدفع بقدمها إلى داخل حجرته ما كان يقع تحت يدها من الطعام. تتعجل قبل أن تذهب إلى عملها. كانت ترفع بقاياه فى المساء، بضربة واحدة من المكنسة غير عابئة بما إذا كان الطعام قد راق له. إنه ـ كما كان يحدث فى أغلب الأحيان ـ قد ظل كما هو دون أن يمس. لم يكن لتنظيف حجرته الذى كانت تقوم بأدائه فى المساء يمكن أن يتم

بصورة أسرع مما كانت تؤديه بها. وكانت لطشات من القذارة قد امتدت على طول الجدران وكانت تتناثر هنا وهناك كتل من الأتربة والقذارة وكان جريجور قد اعتاد في بداية الأمر أن يقع في أحد الأركان والقذارة عندما تدخل شقيقته حتى يلومها في قرارته على ما يبدو، الا أنه ظل قابعا هناك في ركنه ذاك لعدة أسابيع دون أن يتمكن من أن يدفعها إلى القيام بتنظيفه ولقد كان في وسعها أن ترى الأتربة كما كان يراها. إلا أنها ببساطة كانت قد قررت أن تتركها على حالها. لكنها دافعت في حماس في الوقت نفسه عن حقها، في أن تنفرد برعاية شئون جريجور. في حساسية كانت جديدة عليها. وكانت تبدو كما لو كانت قد انتقلت عدواها إلى باقي الأسرة، وكانت أمه قد قامت في إحدى المرات لتنظيف حجرته تنظيفا شاملا. وقد استخدمت لذلك عدة جرادل من الماء - وقد ضايقت تلك الرطوبة كلها جريجور بالطبع هو أيضا فاستلقى متمددا في استياء دون حراك فوق الكنبة - إلا أنها نالت عقابها على ما جنت يداها. فما أن لمحت شقيقته منظر حجرته المتغير في تلك الليلة حتى اندفعت محنقة غاية الحنق إلى حجرة الجلوس. وعلى الرغم من ذراعي أمها المرفوعتين في توسل انفجرت في عاصفة من البكاء.. بينما تطلع والداها.. كان والدها في تفزع بالطبع ناهضا من فوق مقعده في حيرة عاجزة في بداية الأمر ثم خرجا عن الصمت أخيرا فلام الأب الأم إلى يمينه لعدم تركها تنظيف حجرة جريجور لشقيقته. وصرخ في الأخت على يساره بأنه ليس لها بعد الآن أن تقوم بتنظيف حجرة جريجور.

بينما حاولت الأم أن تجذب الأب إلى حجرة نومه بما أنه كان مهتاجا فوق طاقته. وكانت الأخت تنشج بشهقاتها ثم راحت تدق

المائدة بقبضتيها الصغيرتين. وأطلق جريجور صفيرا مرتفعا معلنا غضبه لأن أحدا منهم لم يفكر فى إغلاق الباب حتى يجنبه رؤية مثل ذلك المشهد وتلك الضجة الهائلة.

ولم تعد هناك حاجة بعد ذلك إلى تدخل الأم حتى بعد أن تعبت الأخت من مواصلة العناية بجريجور لإرهاق قواها فى عملها اليومى. كما لم يعد ثمة ما يدعو إلى إهمال جريجور تماما. فلقد كانت الغسالة هناك تلك الأرملة العجوز التى ساعدها بناؤها الضخم المتين على أن تبعث فى جريجور أسوأ ما أمكنها أن تبعثه فيه إلى الحياة. كانت قد فتحت باب حجرته ذات مرة دون قصد.. وعند رؤيتها لجريجور الذى اندفع مضطربا هنا وهناك لمفاجأته رغم أن أحدا لم يكن يطارده، توقفت فحسب فى مكانها عاقدة ذراعيها ومنذ ذلك الحين لم تترك مناسبة لفتح حجرته قليلا لمدة دقيقة فى الصباح وفى المساء لتلقى نظرة عليه. وكانت قد اعتادت فى البداية أن تناديه بكلمات ربما كانت تظنها ودية.. كقولها له : (والآن تعال هنا يا خنفس الفضلات العجوز!)، أو (انظروا الآن إلى خنفس الفضلات العجوز!) لم يكن جريجور يستجيب مطلقا لمثل تلك النداءات، وإنما كان يظل قابعا فى مكانه بلا حراك. كما لو لم يكن الباب قد فتح بالمرة. ربما كان عليهم أن يأمروا تلك الغسالة بتنظيف حجرته يوميا بدلا من السماح لها بإزعاجه باستهتار إلى ذلك الحد، كلما راق لها أن تفعل. وذات مرة فى الصباح الباكر ـ وكانت الأمطار الغزيرة تصفع زجاج النافذة ربما إيذانا بقرب حلول الربيع ـ كان جريجور ساخطا غاية السخط حتى أنه اندفع نحوها. كما لو كان ينوى مهاجمتها. على الرغم من بطء حركته، وعجزه

الشديد. عندما بدأت تخاطبه ثانية على ذلك النحو، لكن بدلا من أن يبدو الخوف على الغسالة.. كانت فقط قد رفعت مقعدا تصادف وجوده بجوار الباب. وكان واضحا، عندما انتصبت هناك بفمها المفغور على اتساعه، أنها لم تكن تنوى إغلاق الباب إلا بعد أن ينزل المقعد فوق ظهر جريجور تساءلت قائلة له : (أنت إذن لن تقترب؟).. بينما كان جريجور قد استدار مبتعدا، فوضعت المقعد ثانية بهدوء فى أحد الأركان.

لم يعد جريجور يأكل الآن أى شىء تقريبا. وحينما كان يمر فقط بجوار الطعام الذى كان يوضع من أجله.. كان يتناول جزءا صغيرا من أى شىء على سبيل التسلية، فيبقى فى فمه حوالى الساعة. ثم يبصقه مرة أخرى عادة وكان قد ظن فى بداية الأمر أن حزنه على سوء حال حجرته هو ما كان يمنعه عن الطعام إلا أنه سرعان ما اعتاد كل ما كان يطرأ على حجرته من التغيرات العديدة. وكان قد أصبح من عادة الأسرة أن تدفع إلى حجرته بكل الأشياء التى لم يكن لها أى مكان آخر فى الشقة. وكانت حجرته قد اكتظت أخيرا بالعديد من هذه الأشياء. حيث كانت إحدى الحجرات قد أخليت لثلاثة من السكان.

وقد كان لدى هؤلاء الشبان الثلاثة ـ الجادين ـ كان ثلاثتهم ذوى لحى كثيفة، كما لاحظ جريجور من خلال شقوق الباب، ولع شديد بالنظام لا فى داخل حجرتهم فقط، وإنما فى كل مكان بالمنزل. طالما أنهم قد أصبحوا الآن من سكانه وخاصة فى داخل المطبخ. وقد استغنوا عن عديد من الأشياء ـ لا لقذارتها ـ بل لأنهم لم يكونوا يحتملون وجودها بداخله، كما أنهم كانوا علاوة على ذلك قد أحضروا معهم بعض الأثاث الذى كانوا بحاجة إليه. ولهذا السبب أمكن الاستغناء عن عديد من

الأشياء التى لم تكن ذات نفع حتى يمكن بيعها، ولم تكن لتلقى بعيدا أيضا. ولقد وجدت كل تلك الأشياء طريقها بالطبع إلى حجرة جريجور، كما وجدت صفيحة الرماد، وكذلك صفيحة القمامة هى أيضا طريقها إلى حجرته. وكل ما لم يكن يلزم استعماله فى حينه. كانت الغسالة التى كانت تؤدى كل شىء فى سرعة بالغة تطوح به ببساطة إلى داخل حجرة جريجور. إلا أن جريجور لحسن حظه لم يكن يرى فقط سوى الأشياء التى كانت تطوحها إلى داخل حجرته ويدها التى كانت تطوح بها تلك الأشياء فقط. وربما كانت قد انتوت أن تخرج كل تلك الأشياء ثانية عندما تسمح الفرصة والوقت أو ربما كانت تجمعها فى كومة، حتى تلقى بها فى النهاية إلى الخارج.

إلا أن تلك الأشياء بقيت فقط فى الحقيقة حيث اتفق أن ألقتها الغسالة، إلا عندما كان جريجور يشق لنفسه طريقا وسط أكوام تلك البقايا.. فيبعثرها على نحو ما، مضطرا فى بداية الأمر، حيث لم يكن أمامه متسع من الفراغ لكى يزحف فيه. ثم بسعادة متزايدة فيما بعد. على الرغم من أنه كان يشعر بالحزن بعد تلك الرياضة فكان يتمدد بلا حراك، متعبا لدرجة الموت، عدة ساعات.

ولما كان السكان الجدد غالبا ما يتناولون عشاءهم بالمنزل، فى حجرة الجلوس المعهودة نفسها، فقد ظل باب الحجرة مغلقا دائما كل مساء إلا أن جريجور كان قد اعتاد بسهولة تامة على إغلاق الباب، حتى أنه عندما كان يفتح فى كثير من الأحيان فى بعض الليالى لم يكن جريجور يلحظ ذلك مطلقا. وكان يبقى متمددا فى مكانه، فى أقصى ركن مظلم من حجرته مختبئاً تماما عن أنظار الأسرة.

إلا أن الغسالة ـ كانت قد تركت الباب مفتوحا قليلا ذات مرة، وظل الباب مورويا على ذلك النحو، حتى بعد أن أضىء المصباح، وقدم السكان الثلاثة لتناول العشاء. كانوا قد جلسوا عند رأس المائدة، حيث كان يجلس جريجور ووالده وأمه فى الماضى لتناول وجباتهم. فرد كل منهم فوطته، وأمسك بالشوكة والسكين، وظهرت أمه فى الحال. فى مدخل الباب المقابل، وبين يديها طبق ممتلىء باللحم، وخلفها مباشرة شقيقته تحمل طبقا ممتلئا بكومة عالية من البطاطس. كان البخار الكثيف يتصاعد من الطعام. وانحنى السكان على الطعام الذى وضع أمامهم، كما لو كانوا يتفحصونه قبل أن يشرعوا فى تناوله. وقطع الرجل الذى كان يتوسطهم، والذى كان يبدو مسيطرا على رفيقيه الآخرين إلى حد ما، قطعة صغيرة من اللحم الموضوع أمامه فى الطبق، ليرى إن كان قد تم نضجه أم يجب أن يعود إلى المطبخ مرة أخرى.. ولقد أبدى ارتياحه. وتنفست والدة جريجور وشقيقته ـ اللتان كانتا ترقبانه ـ قلقتين ـ فى ارتياح وشرعتا تبتسمان.

كانت الأسرة نفسها تتناول وجباتها فى المطبخ، وعند دخول والد جريجور إلى حجرة الجلوس، قبل أن يتجه إلى المطبخ، كان يدور حول المائدة، فى انحناءة طويلة، و(الكاب) فى يده.. فكان السكان الثلاثة يقفون مهمهمين بشىء ما، فى داخل لحاهم. وعندما يخلون ثانية إلى أنفسهم، كانوا يلتهمون طعامهم فى صمت تام، وقد بدا واضحا لجريجور، من بين الأصوات العديدة التى كانت تصدر عن المائدة، أنه كان يميز صوت أسنانهم أثناء مضغ الطعام، كما لو كان هذا إشارة

لجريجور بأن المرء بحاجة إلى الأسنان، حتى يمكنه أن يتناول طعامه، وأن الفكين، مهما بلغت قوتهما لا يفيدان شيئا، بلا أسنان.

قال جريجور لنفسه فى حزن : (إننى جائع للغاية، لكن ليس هذا هو الطعام الذى أريده، كيف يملأ هؤلاء السكان بطونهم، بينما أكاد أنا أتضور هنا جوعا)؟.

فى ذلك المساء - لم يكن جريجور يذكر طوال فترة وجوده هناك، فى داخل حجرته، أنه قد استمع قط إلى صوت الكمان، انبعث صوت العزف على الكمان صادرا من المطبخ، وكان السكان قد فرغوا للتو من تناول العشاء. وأحضر الرجل الأوسط إحدى الصحف وأعطى واحدة من أوراقها لكل من الساكنين الآخرين. وقد كانوا يضطجعون الآن على ظهورهم بارتياح.. يقرأون، ويدخنون. عندما بدأ العزف على الكمان أرهفوا أسماعهم، وهبوا واقفين على أقدامهم، ثم تسربوا على أطراف أصابعهم إلى الباب المؤدى إلى الردهة، حيث توقفوا متلاصقين بعضهم ببعض. ولابد أن حركتهم كانت مسموعة داخل المطبخ، لأن والد جريجور كان قد صاح قائلا : (هل أزعجكم صوت العزف على الكمان، يا أيها السادة؟. يمكننا أن نوقفه على الفور). فرد الساكن الأوسط قائلا: (بالعكس. هل يمكن أن تأتى الآنسة سامسا، لتعزف فى تلك الحجرة بجوارنا، حيث يناسبها ذلك، ويريحها أكثر؟) فصاح والد جريجور قائلا: (يمكننا ذلك بالتأكيد)، كما لو كان هو نفسه عازف الكمان. وعاد السكان الثلاثة إلى حجرة الجلوس. وجلسوا فى الانتظار، ووصل والد جريجور ومعه حامل النوتة. والنوتة فى يد الأم، والكمان تحمله شقيقته. وأعدت شقيقته كل شىء فى هدوء للبدء فى العزف. ولم يخاطر والداه اللذان لم

يسبق لهما من قبل تأجير غرفهما.. فكانت لديهما لهذا فكرة متضخمة من المجاملة اللائقة بالسكان، لم يخاطر والداه بالجلوس لهذا فى مقعديهما الخصوصيين، بل استند والده بظهره إلى الباب. وقد دس يده اليمنى بين زرارين من أزرار سترة عمله، التى كان قد زررها بطريقة رسمية محكمة. وتقبلت والدته مقعدا.. قدمه إليها أحد السكان. ولما كانت قد تركت المقعد كما هو حيث تصادف أن وضعه لها الساكن، فقد جاءت جلستها فى أحد الأركان الجانبية.

وبدأت شقيقة جريجور فى العزف.. وراح الأب والأم من كلا الركنين الجانبين يتابعان تحركات يديها باهتمام. واندفع جريجور بتأثير العزف قليلا إلى الأمام، حتى أصبح رأسه بالفعل فى داخل حجرة الجلوس.. ولقد كانت قد مرت به فترة ما ـ كان يفخر فيها بتعقله، إلا أنه كان لديه، فى تلك المناسبة بالذات.. ما يدفعه إلى الاختباء، لوجود تلك الكميات الهائلة من الأتربة التى كانت تتراكم داخل حجرته، وتثور فى الهواء لأقل حركة، كما أنه كان هو نفسه معفرا بالأتربة، وكان الزغب، والشعر، وبقايا الطعام ينجر خلفه، ملتصقا بظهره، وبكل من جانبيه. وكان شعوره بالغربة الشديدة بالنسبة للجميع، أكبر من أن يسمح له بأن ينقلب على ظهره، وأن يحك جسمه فوق السجادة.. حتى يبدو نظيفا إلى حد ما. كما اتفق له أن فعل ذلك، ذات يوم عديدا من المرات.. لكن لم يمنعه أى ظل من الحرج، على الرغم من حالته تلك، من أن يتقدم قليلا فوق أرضية الحجرة النظيفة.

ولقد لاحظ، من باب الاحتياط، أن أحدا لم يكن منتبها لوجوده.. فقد كانت الأسرة كلها قد استغرقت فى الاستماع إلى العزف على الكمان.

أما السكان، الذين كانوا قد جلسوا، بأيديهم مدسوسة فى داخل جيوبهم، ملتصقين بحامل النوتة الموسيقية.. بحيث كان يمكنهم جميعا أن يقرأوا الموسيقى ـ ولابد أن هذا قد ضايق شقيقته ـ فقد تراجعوا، مع ذلك، نحو النافذة. وراحوا يتحدثون فيما يشبه الهمس برؤوسهم المطرقة إلى أسفل. وظلوا هناك، بينما تابعهم والده بنظراته القلقة. ولقد أوضح سلوكهم هذا حقا إلى أبعد الحدود أن أملهم كان قد خاب فى الاستماع إلى عزف جيد، أو مسل، على الكمان.. وأنهم كانوا قد اكتفوا من المقطوعة بهذا القدر. وأصبحوا الآن يعانون من مواصلة ذلك الإزعاج، البعيد عن اللياقة. وكان باستطاعة المرء أن يتكهن بانزعاجهم من الطريقة التى ينفخون بها دخان سجائرهم عاليا فى الهواء، من خلال أنوفهم، وأفواههم. إلا أن شقيقته كانت تعزف بغاية الروعة، وكان وجهها مائلا فى انفعال إلى جانب، وعيناها تتابعان النوتة الموسيقية فى حزن.

وتقدم جريجور زاحفا مسافة أخرى قصيرة إلى الأمام، وخفض رأسه نحو الأرض. فربما أمكن أن تلتقى عيناه بعينيها. فهل كان حيوانا، إذا كان للموسيقى كل هذا التأثير عليه؟. لقد كان يحس كما لو كان الطريق قد انفتح أمامه إلى الغذاء المجهول الذى كان يشتهيه. ولقد صمم على مواصلة زحفه حتى يبلغ مكان شقيقته، ليجذب طرف جونيلتها، لعلها تدرك أن عليها أن تجىء بكمانها إلى داخل حجرته ـ ذلك أن أحدا لا يتذوق عزفها. كما يمكنه هو أن يتذوقه ولن يدعها تخرج من حجرته.. على الأقل، طالما بقى على قيد الحياة. ولسوف يصبح منظره المرعب ذا فائدة له، للمرة الأولى. فلسوف يرقب كل أبواب

غرفته فى يقظة ويبصق على المتطفلين. ولن تحتاج شقيقته إلى أى شكل من أشكال الضغط. فلسوف تبقى إلى جواره، بدافع من رغبتها الخاصة. وسوف تجلس بجواره على الكنبة. وتميل عليه بأذنها لتسمعه وهو يمر إليها. وأنه كان قد حزم أمره نهائيا على إرسالها إلى الكونسيرفاتوار. وأنه ـ لولا نكبته ـ كان سيعلن ذلك على الجميع فى عيد الميلاد ـ هل مر عيد الميلاد حقا منذ وقت طويل؟ ـ ولم يكن ليستمع إلى اعتراض قط فى هذا الشأن. ولسوف تتأثر شقيقته جدا، لاعترافه هذا، حتى أن دموعها ستنهمر، ليرفع جريجور نفسه حينئذ حتى يبلغ كتفيها، ومن ثم يطبع قبلة فوق عنقها الذى كانت قد تركته عاريا الآن بلا شريط، ولا ياقة، بما إنها كانت تخرج للعمل.

صاح الساكن الأوسط قائلا لوالد جريجور: (مستر سامسا!).. وأشار بيده دون إضافة مزيد من الكلمات، نحو جريجور الذى كان يتقدم حينئذ ببطء نحو الأمام.

صمت صوت الكمان، وابتسم الساكن الأوسط لصديقيه فى البداية بهزة من رأسه، ثم تطلع مرة أخرى إلى جريجور. وبدلا من دفع جريجور إلى خارج الحجرة، بدأ والده بتهدئة السكان، على الرغم من أنهم لم يكونوا قد فزعوا لرؤية جريجور بالمرة. بل ربما كانوا قد وجدوا فى التطلع إليه ـ على ما يبدو ـ تسلية أكثر إمتاعا من الاستماع إلى العزف على الكمان. وأسرع والد جريجور نحوهم ناشرا ذراعيه، محاولات أن يحملهم على العودة إلى حجرتهم. وأن يحجب رؤية جريجور عن أنظارهم فى الوقت نفسه.. إلا أن قليلا من الغضب كان قد بدأ يتملقهم الآن بالفعل. ولم يكن يسع المرء أن يدرك هل كان

غضبهم قد ثار لسلوك الرجل العجوز، أم أنهم كانوا قد غضبوا فقط حين ظهر لهم فجأة. إن ثمة جارا كجريجور كان يشغل الحجرة المجاورة لهم دون أن ينتبهوا إلى ذلك. ولقد طلبوا تفسيرا لذلك الأمر، من والده، ولوحوا له بأذرعتهم، كما لوح لهم، وراحوا يجذبون شعر لحاهم فى عصبية.. ولم يقفلوا راجعين إلى حجرتهم مرغمين.

وعادت شقيقة جريجور إلى وعيها في تلك الأثناء. بعد أن كانت قد ظلت واقفة هناك، في مكانها، كما لو كانت غابت عن الوعى، عندما قوطع عزفها على تلك الصورة، وجمعت شتات نفسها على الفور، بعد أن تجمدت لحظة ممسكة بالكمان والقوس بيدين مرتعشتين، معلقتين فى الهواء، محملقة فى نوتتها الموسيقية، دفعت الكمان إلى حضن والدتها - التى كانت جالسة فى نفس مكانها، تجاهد إحدى نوبات الربو، فى سبيل التقاط أنفاسها - واندفعت إلى داخل حجرة السكان، الذين كانوا فى اتجاهها الآن أمام تقدم والدها على نحو أسرع من ذى قبل. وكان فى إمكان المرء أن يرى الوسائد والأغطية وهى تتطاير فى الهواء تحت أصابعها المدربة. لتستقر مرتبة غاية الترتيب فى أماكنها. وكانت قد فرغت كذلك من ترتيب الأسرة، وانسلت خارجة قبل أن يصل السكان بالفعل إلى غرفتهم. وكانت قد انتابت الرجل العجوز نوبة أخرى من نوبات عناده لتأكيد ذاته، حتى أنه كان قد نسى كل ما كان يجب عليه أن يبديه من الاحترام لسكانه، فلقد ظل يدفعهم أمامه، ويدفعهم، حتى دق الساكن الأوسط الأرض بقدمه فى عنف عند مدخل حجرة النوم. لكى يجبره على التوقف. ثم قال الساكن رافعا إحدى يديه، متطلعا نحو والده جريجور، وشقيقته هى أيضا: (اسمح لى أن أعلن لك، أننى بسبب

تلك الأوضاع المقرفة التى تسود هذا البيت، وهذه الأسرة ـ وهنا بصق فوق الأرض باقتضاب صارم ـ ألفت نظرك إلى هذا .. فلن أدفع لك طبعا، حتى ولا أجر الأيام التى قضيتها هنا، بل على العكس، سأرفع دعوى ضدك، أتهمك فيها بالتخريب ـ صدقنى ـ وسأبنيها على حيثيات سأتمكن من إثبات قوة أثرها فى سهولة).. ثم توقف وحدق أمامه فى الهواء مباشرة، كما لو كان يتوقع شيئا ما.. ولقد اندفع صديقاه، فى الواقع، من خلال تلك الثغرة نفسها، بتلك الكلمات : (ونحن نلفت نظرك إلى هذا) وعند هذا الحد أمسك الساكن الأوسط بمقبض الباب، وصفعه، فانغلق بفرقعة مدوية.

ترنح والد جريجور متلمسا الهواء بأصابع يديه، فى طريقه إلى الأمام، ثم انحط فوق مقعده. ولقد بدا كما لو كان قد مدد نفسه فى جلسته المعهودة تلك لإغفاءة مسائية من تلك الإغفاءات التى كان قد اعتادها. إلا أن اهتزازات رأسه المتتابعة، التى بدت وكأنه كان قد فقد سيطرته عليها أوضحت أنه كان أبعد ما يكون عن النعاس. وكان جريجور قد ظل طوال ذلك الوقت واقفا فى هدوء فى نفس البقعة التى كان السكان قد لمحوه عندها. وقد كانت خيبة أمله تفشل خطته، وربما أيضا ضعفه الذى كان ناتجا عن شدة جوعه. وقد تسببا فى انعدام قدرته على الحركة. ولقد خاف ـ بتوقع بالغ ـ من أن يتحول ذلك التوتر الشامل، إلى هجوم من الجميع عليه وظل مستلقيا فى انتظار ما قد يحدث له. ولم يكن يمكنه أن يقاوم حتى الأصوات التى كانت قد انبعثت من الكمان، عندما سقط من حجر أمه.. منزلقاً من بين أصابعها المرتعشة إلى الأرض، مطلقا صوتا مدويا.

وقالت أخته وهى تضرب المائدة بيدها، كمقدمة لحديثها: «لا يمكن أن تظل الأمور تجرى على هذا النحو يا والدى العزيزين، ربما لا يمكنكما أن تدركا هذا، إلا أنني أدركه إننى لا يمكننى أن أتفوه باسم أخى فى وجود ذلك المخلوق، على هذا فإن كل ما لدى لأقوله هو : يجب أن نحاول التخلص منه، فلقد حاولنا أن نعنى به، وأن نحتمله بقدر ما وسعنا أن نفعل ذلك، إنسانيا، إلا أننى لا أظن أن أحدا سيلومنا أقل اللوم».

قال والد جريجور فى نفسه : «إنها محقة إلى أبعد الحدود!».

أما أمه التى كانت قد اختنقت لعجزها عن التنفس، فقد راحت تسعل فى راحة يدها وعيناها تشعان بنظرة وحشية.

واندفعت أخته نحوها، وأخذت جبهتها بين راحتيها. أما أفكار والده فقد بدت وكأنها كانت قد تخطت كل ما أحاط بكلمات «جريتا» من غموض. فاعتدل فى جلسته، وراح يعبث بأصابعه فى «كاب» الخدمة الذى كان موضوعا وسط الأطباق التى تبقت مكانها بعد انتهاء عشاء السكان. وراح يتطلع من وقت لآخر إلى هيكل جريجور الثابت فى مكانه.

وقالت شقيقته أخيرا لوالدتها فى صراحة، بينما كانت أمها تسعل فى تلاحق حتى أنها لم تكن تسمع كلمة واحدة مما يقال: (يجب علينا أن نحاول التخلص منه. فلسوف ينتهي هذا الحال بكليكما إلى الهلاك. إننى أرى هذه النهاية. فعندما يكون للمرء أن يفعل مثل تلك المشقة التى نعانيها جميعا، فإنه لا يمكنه أن يحتمل مشقة هذا العذاب المستمر فى البيت، فوق مشقته. إننى على الأقل لم أعد احتملها أكثر من ذلك).

ثم انخرطت فى نهنهتها تلك المفعمة، حتى أن دموعها انهمرت فوق وجه أمها، حيث جففتها بطريقة آلية.

قال الرجل العجوز بتعاطف وإدراك واضح: (لكن ما الذى يمكننا أن نفعله يا عزيزتى؟).

هزت شقيقة جريجور كتفيها فقط لتعلن شعورها بالعجز، الذى كان قد سيطر الآن عليها، أثناء بكائها على النقيض من ثقتها السابقة.

فقال والد جريجور فيما يشبه التساؤل : (لو أمكنه أن يدرك حالنا)؟.

وشوحت (جريتا)، التى كانت ما تزال تبكى فى حدة بيدها، حتى توضح له إلى أى مدى يستحيل التفكير فى ذلك!.

وعاد الرجل إلى تكرار قوله : (لو أمكنه أن يدرك حالنا؟) مغلقا عينيه، لكى يتدبر اقناع ابنته بأن ذلك الإدراك كان مستحيلا. «فلعلنا أن نصل معه حينئذ إلى حل ما، إلا أنه لما كانت...».

صرخت شقيقة جريجور قائلة : «يجب عليه أن يذهب، هذا هو الحل الوحيد يا أبى. يجب عليك فقط أن تحاول التخلص من فكرة أن هذا هو جريجور. إن اعتقادنا فى ذلك طوال تلك المدة، هو أصل كل متاعبنا. لكن كيف يمكن أن يكون هو جريجور؟ لو أن هذا هو جريجور، لكان قد أدرك منذ وقت طويل أن البشر لا يمكنهم أن يعيشوا مع مثل هذا المخلوق. ولكان قد رحل بعيدا من نفسه. ولن يكون لنا أخ حينئذ.. إلا أننا سنتمكن من مواصلة الحب. وسيمكننا أن نحتفظ بذاكراه فى إعزاز، لكن فى حالتنا هذه، فإن وجود هذا المخلوق يعذبنا، ويدفع سكاننا إلى الهرب، فتأمل هذا يا أبى؟» ثم صرخت قائلة فجأة «ها هو

ذا يعود ثانية إلى إزعاجنا!.»

وبانتفاضة رعب لم يتمكن جريجور مطلقا من أن يفهمها، حتى لقد أفزعت أمها أيضا، دفعت المقعد بعيدا عنها.. كما لو كانت على استعداد للتضحية بأمها. بدلا من أن تبقى قريبة إلى هذا الحد من جريجور. ثم اندفعت مختفية خلف والدها. الذى انتصب واقفا بدوره. وقد تملكه الغضب لفزعها. فمد ذراعيه أمامه للذود عنها.

لكن لم تكن لدى جريجور أدنى نية فى إفزاع أى شخص فضلا عن شقيقته، كان فقط قد بدأ يستدير لكى يزحف راجعا إلى حجرته. ولكنها كانت عملية تدفع من يشاهدها دون شك إلى أن ينتفض من الرعب. فلم يكن يمكنه أن يأتى بأغلب الحركات المعقدة اللازمة لدوراته. فيما عدا رفع رأسه. ثم حكها فى الأرض مرة بعد الأخرى. ثم توقف وتطلع حوله.. وبدا أن من الممكن إدراك نواياه الطيبة. كان فزعهم مؤقتا. وكانوا الآن يرقبونه فى صمت مطبق. استلقت أمه فوق مقعدها، وقد امتدت ساقاها. والتصقتا ببعضهما. وكانت عيناها مغلقتين تقريبا، فى حالة من الرعب. أما والده وشقيقته.. فقد ظلا جالسين بجوار بعضهما. وكانت ذراع شقيقته قد التفت حول عنق الرجل العجوز.

وفكر جريجور قائلا فى نفسه (ربما أمكننى أن أمضى الآن محاولا الدوران)، وبدأ مرة أخرى فى محاولته. لم يكن فى وسعه أن يمنع نفسه من اللهاث تحت وطأة المجهود. وكان يتوقف من حين لآخر حتى يلتقط أنفاسه. كما أن أحدا لم يزعجه. بل كان قد تُرك لنفسه.. وعندما أتم دورته زحف على الفور راجعا إلى حجرته مباشرة. ولقد أدهشته

تلك المسافة الطويلة التى كانت تفصله عن الحجرة. ولم يستطع أن يتذكر كيف استطاع أن يقطع هذه المسافة نفسها، بمثل تلك السرعة التى كان قد قطعها بها، فى تلك الحالة من الضعف التى كان يبدو عليها، وكان قد لاحظ أنهم لم يتفوهوا بكلمة واحدة، ولا كانت صيحة قد تدخلت فى محاولته الناجحة، عندما كان قد صمم على أن يزحف بأقصى سرعة ممكنة.

لكنه فقط كان قد أدار رأسه إلى الخلف، عندما كان قد أصبح أمام باب حجرته. لم يكن قد أدارها تماما.. ذلك أن عضلات رقبته قد تصلبت أخيرا بشدة. إلا أنه كان قد تمكن من إدارتها إلى حد كان كافيا لكى يرى أن شيئا لم يتغير خلفه. فيما عدا أن شقيقته كانت قد انتصبت واقفة على قدميها. وسقطت نظرته الأخيرة على أمه التى كانت قد استغرقت تماما فى النوم.

وما كاد أن أصبح فى داخل حجرته، حتى انغلق الباب خلفه فى سرعة وأحكم رتاجه، ثم دار المفتاح أيضا دورتين داخل الكالون. ولقد أزعجته تلك الضجة المفاجئة غاية الإزعاج، حتى أن سيقانه الدقيقة قد تهاوت من تحته. لقد كانت شقيقته هى التى بدأت كل ذلك التسرع. كانت قد انتصبت واقفة على أهبة الاستعداد، ثم وثبت وثبة خفيفة إلى الأمام، حتى أن جريجور لم يكن قد سمع وقع خطواتها عندما تبعته. ثم صاحت قائلة لوالديها: (أخيرا) بينما كانت تدير المفتاح داخل القفل!.

قال جريجور لنفسه ـ وهو يلتفت فى الظلام من حوله : (ماذا بعد؟).. وسرعان ما اكتشف أنه لم يكن قادرا أن يحرك الآن أى طرف

من أطرافه، ولم يدهش لذلك، إلا أن ما بدا له غير طبيعى هو عجزه التام عن أن يتحرك زاحفا فوق تلك السيقان الدقيقة الواهنة. لكنه كان قد أحس رغم ذلك بالراحة التامة. ولقد كان جسمه كله يؤلمه حقا، إلا أنه أحس بأن ذلك الألم قد بدأ يتناقص تدريجيا. وبدا له أن سيزول فى نهاية الأمر وقد كانت التفاحة المتعفنة المغروسة فى ظهره والجراح الملتهبة التى تحيطها والغطاء كله بالأتربة الناعمة لا يسبب أى نوع من الألم. وراح يفكر فى أسرته. فى رقة، وحب. أما القرار الذى كان يقضى عليه بأن يختفى، فقد كان واحدا من الأفكار التى كان متشبثا بها على نحو أشد عنفا من تشبث شقيقته بذلك ـ لو أمكن له أن يكون أشد عنفا منها ـ ولقد ظل فى وحدته تلك، وحيرته الصامتة حتى رنت ساعة البرج معلنة الثالثة صباحا.. وجذبه هذا مرة أخرى إلى وعيه. أول شعاع من الضوء يصله من العالم الخارجى ثم تهاوت رأسه تلقائيا. فسقطت فوق الأرض. ومن منخاريه خفقت آخر أنفاسه اللاهثة!.

وعندما وصلت الغسالة فى الصباح الباكر ـ تلك الغسالة التى كانت لفرط رعونتها ولفرط تعجلها تفتح كل الأبواب، بكل تلك الضجة.. دون أن تعبأ بتوسلاتهم إليها بأن تقلع عن ذلك، حتى أن أحداً فى الشقة كلها، لم يكن فيها بأية ذرة من النوم الهادىء بعد وصولها ـ لم تكن قد لاحظت شيئا مخالفا للعادة عندما استرقت النظر كعادتها إلى داخل حجرة جريجور. ولقد ظنت أنه كان مستلقيا عن عمد بلا حراك. متظاهرا بالاستغراق فى أحزانه ولقد دفعها بكاؤها إلى الاقتناع التام بتظاهره بمنع الحركة ولما كان قد تصادف وجود المكنسة ذات اليد

الخشبية الطويلة فى يدها، فقد حاولت أن تداعبه بها من خلال فتحة الباب. وعندما لم يفلح هذا أيضا فى حمله على الحركة أحست بالغيظ، ووخزته بطرف المكنسة فى عنف، وعندما دفعته فوق أرض الحجرة دون أن تتلقى أى مقاومة. كان إدراكها قد استيقظ حينذاك. ولم يستغرقها ذلك طويل وقت حتى تدرك حقيقة الأمر. واتسعت عيناها ثم أطلقت صفيرا مرتفعا. إلا أنها لم تضع وقتها فى تأمل الأمر أكثر من ذلك، بل فتحت باب حجرة نوم مستر سامسا وزوجته. وهتفت فى ظلامها بأعلى صوتها، قائلة : (انظروا إلى ذلك الآن. لقد مات. إنه ملقى هنالك ميتا!).

ونهض مستر سامسا وزوجته فى فراشهما المشترك وقبل أن يتمكنا من إدراك كنه ما أعلنته الغسالة، كانت قد استولت عليهما المفاجأة. التى لم يستوعباها سوى بصعوبة، إلا أنهما نهضا بسرعة من فراشهما. كل منهما من جانب، وألقى مستر سامسا ببطانية فوق كتفه. وكانت مسز سامسا فقط فى قميص نومها، وبتلك الملابس دخلا حجرة جريجور. وانفتح فى تلك الأثناء باب حجرة الجلوس أيضا. حيث كانت (جريتا) تنام منذ مجيء السكان. وقد كانت ترتدى ملابسها كاملة كما لو لم تكن قد استلقت مطلقا فى فراشها. وقد أكد هذا شحوب وجهها أيضا.

تطلعت مسز سامسا نحو الغسالة متسائلة : (هل مات؟) على الرغم من أنها كانت قد حدقت فيه بنفسها كما أن الحقيقة كانت واضحة بدرجة كافية دون حاجة إلى أى بحث.

قالت الغسالة : (يمكننى أن أقول ذلك!) بينما كانت تدفع جثة جريجور بعيدا إلى أحد الجوانب بطرف المكنسة، تأكيدا لكلامها، وبدت

حركة ما عن مسز سامسا، كأنما لتمنعها عن أن تفعل ذلك، لكنها تراجعت.

وقال مستر سامسا : (حسنا. والآن شكرا للرب!) ورسم على صدره علامة الصليب، وحذت النسوة الثلاث حذوه.

وقالت ـ جريتا ـ التى لم ترتفع عيناها عن الجثة : (انظروا إلى أى حد قد صار هزيلا. لقد مر وقت طويل ولم يكن قد تناول فيه أى شىء، فلقد كان الطعام يخرج ثانية من حجرته كما دخلها!).

ولقد كان جسم جريجور مسطحا حقا، وجافا للغاية. كما بدا الآن عندما لم يعد مرفوعا بعد فوق سيقانه.. ولم يكن ثمة ما يمنع المرء من التطلع إليه عن كثب.

قالت مسز سامسا، بابتسامة مهزوزة (تعالى الآن إلى جوارنا لحظة قصيرة يا جريتا).

وتبعت جريتا والديها إلى حجرة نومها دون أن تقاوم النظر خلفها إلى الجثة. وأغلقت الغسالة باب الحجرة. وفتحت النافذة على مصراعيها. وعلى الرغم من أن الوقت كان مبكرا جدا فى الصباح، فقد كان هنالك ثمة رقة كان من الممكن الإحساس بها فى الهواء الطلق. وكان شهر مارس فوق هذا قد أوشك على نهايته.

وخرج السكان الثلاثة من حجرتهم، وقد ظهرت على وجوههم الدهشة عندما لم يجدوا طعام الإفطار. كانوا قد غابوا عن البال. صاح الساكن الأوسط قائلا للغسالة فى تبرم : (أين إفطارى).

إلا أنها وضعت إصبعها فوق شفتيها، وأشارت لهم فى سرعة دون أن تتفوه بكلمة أن يتوجهوا إلى مستر سامسا وزوجته. وظهر أن مستر

سامسا كان قد توجه إلى حجرة جريجور فاتجهوا إليها وتوقفوا هناك وأيديهم مدسوسة فى داخل جيوب معاطفهم المتهدلة بداخل الحجرة التى كان الضوء يغمرها الآن.

وعند ذلك فتح باب حجرة نوم سامسا فى زيه، بينما تعلقت زوجته بذراعه وتعلقت ابنته بذراعه الآخر. ولقد بدا ثلاثتهم كما لو كانوا قد بكوا طويلا، وكانت (جريتا) تخفى وجهها من وقت لآخر فى ذراع والدها.

صاح المستر سامسا قائلا، وهو يومىء نحو باب الشقة، دون أن يخلص ذراعيه من ذراعى المرأتين : (غادروا منزلى حالا!).

ورد الساكن الأوسط متراجعا قليلا إلى الخلف بابتسامة باهتة: (ما الذى تقصده بهذا؟).

بينما وضع كل من الساكنين الآخرين، يديه خلف ظهره. راح يفركهما ببعضهما، كما لو كانا يتأهبان فى مرح لخوض معركة مرتقبة كانا يتوقعان خروجهما منها فائزين.

فقال المستر سامسا وهو يتقدم بصحبة المرأتين نحو الساكن مباشرة: (إننى أقصد ما قد قلته!).

فتوقف هذا فى مكانه بهدوء مطرقا إلى الأرض. كما لو كانت أفكاره قد بدأت تتشكل فى داخل رأسه، فهى أشكال جديدة، ثم قال: (لنذهب إذن، على أية حال)! ثم تطلع إلى مستر سامسا، كما لو كان يتوقع بمزيد من الإذعان المفاجىء تغييرا ما فى قراره.

إلا أن مستر سامسا كان قد أومأ فقط باقتضاب مرة أو مرتين بعينين ثابتتين. وعند ذلك راح الساكن يتمشى بالفعل فى خطوات

واسعة فى الردهة. وكان رفيقاه يستمعان فقط، واقفين فى هدوء، يواصلان فرك أيديهما بضع لحظات أخرى، ثم أسرعا يهرولان خلفه، كما لو كانا قد خافا أن يبلغ مستر سامسا الردهة قبلهما، وأن يفصلهما عن زعيمهما. وفى الردهة تناول ثلاثتهم قبعاتهم من المشجب. كما تناولوا عصيهم من الحامل. وانحنوا فى صمت. ثم غادروا الشقة. وتبعهم مستر سامسا، والمرأتان فى ارتياب لم يكن له ما يبرره، إلى بسطة السلم.. وانحنوا فوق الدرابزين يرقبون الاشخاص الثلاثة الذين كانوا يهبطون السلالم فى بطء، محتجبين عن الأنظار، عند أحد منحنيات السلم فى كل طابق، ليعاودوا الظهور ثانية بعد دقيقة أو نحوها، وكلما هبطوا كلما ازداد اهتمام مستر سامسا بهبوطهم. وعندما التقى بهم أحد صبية الجزارين، وتخطاهم صاعدا السلم فى خيلاء بصينية فوق رأسه، ترك مستر سامسا والمرأتان بسطة السلم إذ ذاك، كما لو كان عبئا قد انزاح عن كاهلهم، وعادوا ثانية إلى داخل شقتهم.

وقرروا قضاء اليوم فى الراحة، والخروج من المنزل فلم يكونوا يستحقون فقط تلك العطلة من العمل، بل لقد كانوا فى أشد الحاجة إليها أيضا. وهكذا جلس ثلاثتهم على المائدة ليكتبوا ثلاثة خطابات للاعتذار عن العمل.

فقد كتب مستر سامسا اعتذارا للإدارة التى يعمل بها، وكتبت مسز سامسا اعتذارها لعميلها، وكتبت ـ جريتا ـ لرئيس المؤسسة التى تتبعها، وبينما كانوا منهمكين فى الكتابة دخلت الغسالة لتخبرهم بذهابها بعد أن فرغت من القيام بعملها الصباحى. ولقد أومأوا لها فى

البداية دون أن يرفعوا رؤوسهم نحوها.. لكن حين بدا أنها كانت قد ظلت تحوم حولها فقد تطلعوا إليها بانفعال.

صاح مستر سامسا ـ حسنا وظلت المرأة فى وقفتها عند مدخل الباب متجهمة كما لو كان لديها ثمة أخبار سارة تود أن تنهيها إلى الأسرة.. لكنها كانت قد قررت ألا تتفوه بكلمة ما لم يطلب إليها ذلك. وقد كانت ريشة النعامة المثبتة فوق قمة قبعتها فى اعتدال، والتى كان وجودها يضايق مستر سامسا منذ أن تمت خطوبة الغسالة، كانت تتمايل فى سعادة فى كل اتجاه.

تساءل مستر سامسا الذى كان يطلب من الغسالة أن تبدى احترامها له أكثر من الآخرين : (حسنا، ثم ماذا بعد ذلك؟).

ردت الغسالة قائلة : (آه).. كانت تضحك باستخفاف، وتظرف، حتى أنها لم تتمكن من مواصلة حديثها على الفور: (هذا هو الأمر، لا تشغلوا بالكم بكيفية التخلص من ذلك الشىء الذى فى الحجرة المجاورة.. فلقد تدبرت أمره بنفسى منذ قليل).

انحنت مسز سامسا، وجريتا ثانية على خطابيهما كما لو كانتا قد توقعتا حدوث ذلك. أما مستر سامسا، الذى أدرك أن الغسالة كانت تتوق إلى أن تبدأ فى وصف ذلك الأمر بالتفصيل. فقد صدها على الفور بإشارة حاسمة من يده. وعندما اكتشفت أنهم لم يسمحوا لها بسرد الحكاية، تذكرت ما كان ينتظرها على وجه السرعة. وقد كان غيظها قد ثار فى حدة بالغة، فاندفعت فى عنف وهى تقول : (إلى اللقاء جميعا). وانصرفت بعد أن صفقت الأبواب خلفها فى ضجة هائلة.

قال مستر سامسا : (سوف ألفت نظرها هذا المساء).

إلا أنه لم يتلق ردا لا من زوجته ولا من ابنته. فلقد كانت الغسالة على ما يبدو قد أهدرت السكينة التى كانت قد أوشكت المرأتان على بلوغها.

قامتا، متجهتين نحو النافذة، وبقيتا هناك، وقد احتضنتا بعضهما البعض فى عنف.

واستدار مستر سامسا فى مقعده لينظر إليهما. وفى هدوء تطلع إليهما لحظة. ثم صاح قائلا : (هيا.. تعاليا الآن. أقبلا. وليكن ما قد كان. ولعلكما أن تهتما بى قليلا أنا أيضا).

فامتثلتا على الفور وأسرعتا نحوه.. فاحتضنتاه. ثم أسرعتا بإكمال كتابة خطابيهما ثم غادر ثلاثتهم الشقة معا. وهو ما لم يفعلوه منذ عدة شهور مضت. واستقلوا الترام، متجهين صوب الخلاء الفسيح، فى خارج المدينة. وكانت أشعة الشمس الدافئة قد فرشت الترام الذى لم يكن به سواهم. وعندما استندوا بظهورهم فى راحة على مقاعدهم، راحوا يتفحصون الصور التى تخيلوها للمستقبل.. وقد تبدت لهم عند فحصها عن كثب، غير مظلمة على الإطلاق. ذلك أن الأعمال التى كانوا قد حصلوا عليها والتى لم يكونوا قد بحثوا أمرها معا من قبل، كانت ثلاثاً من الوظائف الرائعة، كما أنها كانت جميعا كفيلة بأن تتمخض عن نتائج طيبة فيما بعد.. كما أن أكبر تقدم محسوس فى وضعهم، كان سيحققه بالطبع انتقالهم إلى شقة أخرى. وقد كانوا يريدون الحصول على شقة أصغر وأرخص. وتتميز إلى جانب هذا بحسن موقعها، وبسهولة القيام بأعبائها، على عكس شقتهم الحالية التى كان جريجور قد اختارها.

وبينما كانوا يتشوقون على هذا النحو، فوجىء المستر سامسا وزوجته كلاهما، فى نفس اللحظة تقريبا، وهما يلحظان حيوية ابنتهما المتزايدة، أنه على الرغم من كل أسى أيامهما الحاضرة، تلك الأيام التى كانت قد صبغت خدى ابنتهما بذلك الشحوب، إلا أنها كانت قد تفتحت.. وأصبحت شابة جميلة، فاتنة القوام فشرعت السكينة حينئذ تهدهدهما، وتبادلا فيما يشبه الغيبوبة شعوراً مفعما بالرضا. عندها انتبها إلى أن الوقت لن يلبث حتى يدفعهما إلى البحث لها عن عريس طيب.

وكأنما كان تأييدا لأحلامهما الطارئة، ونواياهما الرقيقة، فقد قفزت ابنتهما على قدميها أولا، فور انتهاء رحلتهم، ثم تمطت بجسدها الغض!.